المصفوفة الأم

منظومة منهج الدمج الرباعي بين الثوابت والمتغيرات



بقلم خادم السلف

أبي بكر العدني ابن علي المشهور

اسم الكتاب: المصفوفة الأم.. منظومة منهج الدمج الرباعي بين الثوابت والمتغيرات
اسم المؤلف: أبوبكر العدني ابن علي المشهور

الطبعة التجريبية ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
قياس القطع: ١٥ x ٢١

دَارُ الإِظْهَارِ لِلأَبْحَاثِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

للملاحظات
يمكن مراسلة المؤلف على موقعه الشخصي
com.alhabibabobakr

بسم الله الرحمن الرحيم

الباعث

كانت قضية الربط بين الديانة والتاريخ إحدى مسائل فقه التحولات في علومه الخمسة التي يُعنى بها، وكان التناول لهذا الربط يأخذ بذهني بين الحين والحين لأَرْقُمَ منظومةً حاويةً على عموم فكرة الربط ، جامعةً لقراءة التاريخ الشرعي في مسيرة تسلسل الحياة.

والكتابةُ في هذا الموضوع دقيقةٌ وحساسةٌ ، وخاصة إذا نظرنا إلى حَمْلَة الحداثة المغرِضة التي شَوَّشَتْ قراءةَ الدِّين ، وكَذَّبَتْ بآيات الله، ونَفَتْ بجرأةٍ وجودَ الخالق وتصرُّفَه في كونه المخلوق، ولكنَّ الحقيقة تظل ناصعةً ببرهانها ولو كره الكافرون.

فشرعتُ خلال رحلتي الدَّعْوِيَّة إلى جزيرة سيلان ـ وهي مهد الخروج الإنساني الأول على الوجه الشرعي المتداول ـ في وضع الخطوط الأولى للمنظومة، وأكملتُها بحمد الله في سفري من سيلان بالطائرة إلى سلطنة عمان في العاشر من شعبان ١٤٣٧هـ ، قبيل سفري إلى حضرموت للمشاركة في فعاليات الحلقات العلمية واللقاءات الأبوية المنعقدة في مناسبة الاجتماع السنوي في شعب نبي الله هود ش .

وكان من توفيق الله الفراغ من الكتاب مع ابتعاث الهمة لافتتاح كلية الوسطية الشرعية بتريم في شعب المهاجر ، ليكون هذا الكتاب إحدى مقررات فقه الدعوة إلى الله القائمة على دراسة رباعية الأركان.

والحمد لله الذي به تتم الصالحات ، وعسى يحصل بها النفع لدى طلاب وطالبات العلم ، وبالله التوفيق.

أبوبكر العدني ابن علي المشهور

١٩ جمادى الثاني ١٤٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

الحَمْـدُ للـهِ العَلِـيِّ المُعْتَلِـي
مُبْدِي الأُمُورِ الوَاحِدِ الفَرْدِ العَلِي

مُسْـدِي العَطَايـا لِلْعِبَـادِ سَـلفاً
وَمُكْرِمِ الإِنْسَـانِ بِالمَنْحِ الجَلِي

خَلْقـاً وَأَخْلَاقـاً وَدِينـاً شـاملاً
يُعْطِـي وَيُسْـدِي عَبْـدَهُ وَيَبْتَلِـي

بَاعِـثُ كُلِّ الأَنْبِيـاءِ بِالهُـدَى
فـي كُلِّ عَصْـرٍ آخِـرٍ وَأَوَّلِ

لَـمْ يَتْـرُكِ الإِنْسَـانَ عَبْـدَ رَأْيِـهِ
ولا أَسِـيراً لِلْهَـوَى المُرْتَجَـلِ

وَبَعْـدُ فَالتَّارِيـخُ فَـرْعُ دِينِنَـا
إذا رَبَطْنَـا سَـيْرَهُ بِالمُنْـزَلِ

فَالرَّبْـطُ يَهْـدِي الحَائِرِيـنَ جُمْلَـةً
إلـى طَرِيـقِ الحَـقِّ وَالتَّأَمُّـلِ

وَهـذِهِ مَنْظُومَـةٌ قَـدْ صُغْتُهـا
تَحْمِـلُ تَارِيخَ الزَّمَـانِ المَرْحَلِي

قِـرَاءَةٌ شَـرْعِيَّةٌ كمـا أتـى
في واقِـعِ النُّصـوصِ دونَ خَلَلِ

سَـأَلْتُ رَبّـي أَنْ تَكُـونَ سُـلّماً
لِلْحَقِّ فـي عَهْدِ الغُثَاءِ المُفْشِـلِ

وَضابِطـاً لِلْعَقْـلِ عَـنْ جُمـودِهِ
كَيْ يَهْتَدِي إلى السَّبِيلِ الأَفْضَلِ

يفتتح الناظم منظومتَه بحمد الله تعالى كما هو مندوبٌ ومطلوبٌ، مستعرضاً عدداً من أسمائِه العلية وصفاته، متبرِّكاً بها ومبيِّناً ما قد أسداه المولى ولا زال يسديه لعباده من الخير والكرم، وخاصةً في ما قرَّره من ابتعاثِه أنبياءَه بالرسالات السماوية، التي هي أصلُ توجيهِ الخليقةِ مِن آخِرٍ وَأَوَّلِ.

ولم يترك البشرية منذ وجودها تذهبُ لاختيار العقل والتجربة لما يُقِرِّرُه العقلانيون عن مبتدأِ الحياة، وإنما رَبَطَها بالوحي وبالرسل لهدايةِ البشرية ولمعرفة الحق الذي لا غبار عليه، ثم أشار إلى هذه المنظومة الشعرية التي صاغها على صفة الشعر التعليمي المعتمِد على قراءة التاريخ الإنساني من واقع النصوص، سائلاً المولى سبحانه وتعالى أن يجعلها وسيلة لمعرفة الحقِّ المسكوت عنه في عهد الغثاء والوَهَن والفشل، وأن تساعد على ضبط عقل المعلم والمتعلم في قراءة سير الحياة التاريخية مربوطةً بالديانة، كي يهتديَ القارئ إلى السبيل الأفضل والمنهج الأقوم في تعليل شؤون الحياة مبتدأً ومنتهىً، وبالله التوفيق.

الدرس الأول

ماهية الدمج

مِـنَ اليَقِيـنِ الثَّابِـتِ المُؤَصَّـلِ　　مَاهِيَـةُ الدَّمْـجِ لِنَـصٍّ مِفْصَلِـي
حَدِيـثُ جِبْرِيـلَ بِشِـقَّيْ دَرْسِـهِ　　وَضْعاًوشَرْعاًفي النِّظَامِ الهَيْكَلِي
قَوَاعِـدٌ وَمِثْلُهـا تَطَابُـقٌ　　مَزْمُومَـةٌ بِأَصْلِهـا المُؤَصَّـلِ

يشير الناظم إلى أنه ثَبَتَ يقيناً وَحْدَةُ حديث جبريل الموضوعية والشرعية ، بما قد تناولتْه كتب قواعد هذا العلم، وهي القواعد التي تقوم عليها التطبيقات مكاناً وزماناً وإنساناً ووجداناً، ومادة هذه التطبيقات مبثوثةٌ في أحاديث علامات الساعة والكتب المصنفة في هذا الأمر ما بين مختصر ومبسوط ، استقام عليها فقه الأصول بسننه الثلاث:

- السنة القولية
- السنة الفعلية
- السنة التقريرية

وما تفرع عن هذه السنن من تفصيل علوم الشريعة وأحكامها وعلوم العقيدة وأقسامها، وعلوم الإحسان ومراتب السلوك، وجاء (فقه التحولات) خاصاً بإعادة صياغة المفهوم القرائي لهذه الثلاثة العلوم ممتزجاً بها من حيثياتٍ معينة، ومنفصلاً عنها من حيثيات أخرى ، فالامتزاج هو الدمج المشار إليه في مدلول الوحدة الموضوعية من خلال وحدة النص ومدلوله ، بدءاً بالإسلام ونهايةً بقوله: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم**».

فالموضوع الرباعي كلُّه مندرجٌ في نص واحد لا ينفصل فيه متغيرٌ عن ثابتٍ.

أمـا وحدته الشـرعية فإشـارة إلـى لفظ «**أمـر دينكـم**»، والدين فـي علاقته الشـرعية وحدة لا تتجزأ، فمن هنا صار واجبـاً تفصيل هذا الأمر على أصوله الشرعية.

الدرس الثاني

فقه الأصول

عِلْـمُ الأُصُـولِ قَائِـمٌ بِسُـنَنٍ   قَوْلِيَّـةٍ بِلَفْظِـهِ المُفَصَّـلِ
وَمِثْلُهـا فِعْلِيَّـةٌ لِـكُلِّ مـا   يَفْعَلُـهُ أَهْـلُ السُّـلُوكِ الأَمْثَلِ
وَبَعْدَهـا مـا قَـرَّرَ المُخْتـارُ مِنْ   فِعْـلٍ جَرى مِـنْ رِفْقَـةِ التَّبَتُّلِ
قَرَّرهـا أَهْـلُ الأُصـولِ عِنْدَمـا   تَرَتَّـبَ التَّدْوِيـنُ لِلْمُسْـتَقْبَلِ
قَامَـتْ بِـهِ ثَوَابِـتٌ ثَلاثَـةٌ   شَـرِيعَةٌ عَقِيـدَةٌ بِالمُجْمَـلِ
وَبَعْدَها الأَخْلَاقُ في مَرَاتِبِ ال   إِحْسَانِ بَابِ الإِنْكِسارِ لِلْوَلِي

يشير الناظم إلى أن علم الأصول قائمٌ بما قرره العلماء من السنن الثلاث:
القولية ، وهي كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
الفعلية ، وهي كل ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
التقريرية ، وهي كل ما أقره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فعل غيره.

وهذه السنن الثلاث هي التي أقام عليها علماء الأصول استدلالاتهم فيما يخص الثوابت الثلاثة:

- الإسلام ، وهو علم الشريعة،
- والإيمان ، وهو علم العقيدة،
- والإحسان ، وهو علم مراتب السلوك.

الدرس الثالث

فقه الدعوة

وَدَعْـوَةُ المُخْتَـارِ كَانَـتْ سَـلَفاً أُصُولُهـا لِفِقْهِنَـا المُؤَصَّـلِ
مَقْرُونَـةً بِالوَحْـيِ لَمَّـا أَنْ بَـدَا جِبْرِيـلُ يَأْتـي لِلنَّبِـيِّ المُرْسَـلِ
مَوَاقِـفُ المُخْتَـارِ تُبْـدِي فِقْهَهـا دَلَالَـةً لِـكُلِّ حَـالٍ مُشْـكِلِ
تَأْصِلُيهَـا فـي قَوْلِـهِ عَلَيْكُـمُ بِسُـنَّتِي وَسُـنَّةٍ أُخْـرَى تَلِـي
لِلْخُلَفَـاءِ الرَّاشِـدِينَ بَعْـدَهُ عَضُّوا عَلَيْها في اخْتِلَافِ الدُّوَلِ
وَقَوْلِـهِ مَـنْ سَـنَّ في الإِسْـلَامِ ما يَخْدِمُ دِينَ المُصْطَفَى المُفَضَّلِ
فَأَجْـرُهُ وَمَـنْ بِـهِ قَـدِ اقْتَـدَى أَجْـرٌ يَزِيـدُ فـي ثَـوَابِ العَمَلِ
مَوَاقِـفٌ وَمِثْلُهَـا دَلَالَـةٌ فِقْـهٌ بِـهِ دِرَاسَـةُ التَّحَـوُّلِ
أَسَاسُـهُ عِلْـمُ العَلَامَـاتِ الَّتـي تَفْصِيلُهـا عِلْـمٌ عَظِيـمُ المَنْزِلِ

يشير الناظمُ إلى تأصيل فقه الدعوة قبل ظهور علم الأصول ، فيعتبر أن فقه الدعوة كان سابقاً ومتقدماً من حيثُ الزمنُ على فقه الأصول، وكانت أولُ علاقة الأمة بفقه الدعوة مع نزول آيات القراءة على النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق:١-٥]، فهذه الآيات منطلقُ فقه الدعوة قبل فقه الأصول، وأما فقه الأصول فعلمٌ مستنبطٌ من المصدرين الأساسيين: كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم،

وقد جاء لاحقاً بعد أكثر من قرن من زمان شمول فقه الدعوة.

وأول من صنف في علم الأصول ووضع قواعده الإمام الشافعي في القرن الهجري الثاني، وقد دمج علماء الأصول بين الفقهين فتقيَّد فقه الدعوة وتَقَيَّدَتْ لغتُها بقيود قواعد علم الأصول ، مما أوجد بين الفقهين لوناً من ألوان الصراع فيما بعد على الاحتواء والمصادرة، فشَرْطُ فِقْهِ الأصولِ قواعدُ الاجتهاد المعتبرة، بينما فقه الدعوة لا يرضخ لهذه القواعد ولا ينطوي فيها إلا من حيثية واحدة، وهي: معرفة الداعي بمبادئ فقه الأصول والفروع مع عدم اشتراط العلم بقواعد علم الأصول وأُسسه.

وبهذا صار فقه الدعوة مقيداً على مدى تاريخه بالشروط الأصولية ومنفصلاً عنها من حيث القواعد، بل تَعَرَّضَ بعض الدعاة لنبز فقهاء الأصول ونيلهم من مستوى علمه وفهمه إن لم يحقق شيئاً من فقه علم الأصول حسب الشروط المقعدة، مما أوجد وحشةً بين حَمَلَة علوم الفقه والحديث، وبين فقهاء الدعوة إلى الله.

الدرس الرابع

فقه التحولات يؤكد أسبقية فقه الدعوة على فقه الأصول

مُنْذُ بَلَاغِ المُصْطَفَى بِمَكَّـةٍ ... أَقَـامَ صَرْحـاً بِالبَـلَاغِ الأَوَّلِ
مُرَسِّـخاً فِقْـهَ السُّـلُوكِ دَاعِيـاً ... أَتْبَاعَـهُ إلـى السُّـلُوكِ الأَمْثَـلِ
قَـوَامُ مَـا جَـاءَ بِـهِ أَرْبَعَـةٌ ... الوَحْيُ وَالعِصْمَةُ بِالحِفْظِ الجَلِي
وَمُعْجِـزَاتٌ بَاهِـرَاتٌ مِثْلُهَـا ... أَخْلَاقُـهُ العُلْيَـا عِـلاجُ مَـن بُلِي

يشير الناظم إلى أنه منذ بلاغ النبي صلى الله عليه واله وسلم مسالة الدعوة وهو يرسخ فقهها وأسلوبها على ما يلي:

البلاغ عن الله، والصبر على الأذى

تربية النخبة الأولى من السابقين للإسلام

وضع قواعد الدعوة إلى الله

وإلى ذلك تشير الآيات الكريمات من سورة الأحزاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾[الأحزاب:٤٥-٤٨]، فكانت هذه وظائف فقه الدعوة والبلاغ عن الله ، وكان قوامه:

الوحي والعصمة والنبوة والأخلاق والمعجزات

الدرس الخامس

اكتمال مرحلة فقه الدعوة وظهور قواعد التكليفات الشرعية

مِـنْ آخِـرِ الآيَـاتِ فيمـا ذَكَـرُوا ... اليَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِينـاً عَلِـي
فـي حَجَّـةِ الـوَدَاعِ جَـاءَتْ آخِـراً ... دَلَالَـةُ الإِتْمَـامِ لِلْمُكْتَمَـلِ
وَبَعْـدَ أَنْ عَـادَ لِأَرْضِ طَيْبَـةٍ ... أَتَـاهُ جِبْرِيـلُ مَـعَ التَّمَهُّـلِ
مُقَـرِّراً بَعْـدَ المُثُـولِ رَدَّهُ ... عَلَـى سُـؤَالٍ جَامِـعٍ لِلْمُنْـزَلِ
أَرْبَعَـةُ الأَرْكَانِ أَمْـرُ دِينِنَـا ... مَجْمُوعَةٌ في النَّصِّ فَافْهَمْ وَاعْقِلِ
بهـا اقْتَضَـى الفَهْـمُ لِشَـرْعٍ شَـامِلٍ ... فـي نَـصِّ «أُمِّ السُّـنَّةِ» المُشْـتَمِلِ

يشير الناظم إلى أن آخر ما نزل به جبريل من الوحي على رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣] أو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

والأقرب إلى الإتمام الآية الأولى على القول الأول ، وهو موضوع فقه الدعوة في إبلاغ الدين المكمَّل دعوةً وأصولاً، وإذا دققنا في مسألة التمييز بين فقه الدعوة، وبين فقه الأصول لوجدنا أن فقه الدعوة قد امتدَّ طيلةَ مرحلةِ مكة المكرمة قبل الهجرة، وأخذ رَدْحَاً من الزمن بعدها حتى نزول آيات التشريع ، وعلى هذا التفصيل يكون فقه الأصول في وضع قواعده متأخراً عن فقه الدعوة إلى الله بلا مراء ولا جدال.

الدرس السادس

علاقة فقه الدعوة بفقه الأصول

يَقُـولُ طَـهَ مَـنْ يُـرِدْ خَيـراً بِـهِ   يَـزِدْهُ فِقْهـاً فـي جَمِيـعِ المُنْـزَلِ
فَالدِّيـنُ فـي مَعْنَـاهُ كُلُّ مَـا أَتـى   مِـنْ أَمْـرِ دِيـنِ اللـهِ مِثْلَمَـا تُلـي
أَسَاسُـهُ الدَّعْـوَةُ قَبْـلَ كَوْنِـهِ   عِلْمـاً أُصُولِيّـاً فَدَقِّـقْ وَاسْـأَلِ
فبَعْضُهُـمْ قَـدْ عَزَلُـوا تعَمُّـداً   مَـا بَيْـنَ فِقْـهِ الدِّيـنِ بِالتَّمَحُّـلِ
فَأَثْبَتُـوا فِقْـهَ الأُصُـولِ وَحْـدَهُ   وَجعَلُـوهُ الأَصْـلَ دُونَ بَـدَلِ
حَتَّـى غَـدَتْ دَعْـوَةُ طَـهَ مَغْمَـزاً   لِنَاشِـرِ الدَّعْـوَةِ بِالتَّقَلُّـلِ
يُقَـالُ هـذا وَاعِـظٌ وَمُرْشِـدٌ   عَلَـى سَـبِيلِ الْلَمْـزِ وَالتَّعَلُّـلِ
وَالحَـقُّ أَنَّ كُلَّ فِقْـهٍ حَـدُّهُ   وَظِيفَـةٌ تَخُـصُّ كُلَّ حَامِـلِ
فـذا فَقِيـهُ دَعْـوَةٍ مَحْمُـودَةٍ   وَصِنْـوُهُ فَقِيـهُ تَأْصِيـلٍ جَلِـي
كِلاهُمـا مُجَسِّـدٌ لِفِقْهِـهِ   وَالأَصْلُ فِقْهُ الدِّينِ دِينِ المُرْسَلِ

يشـير الناظم إلى أن الفقهَ بعمومه عطاءٌ من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسـلم، وهو أيضا ميراثه الذي خلفه لأمته، بل جعله دلالة على الخيرية في الأمة بقوله: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»،

فالدين دعوةٌ قبل أن يكون علماً أصولياً ، وهذا ما نص عليه الحديث ،

وبعض العلماء حصروا المعنى في علم الفقه والأصول دون غيره فعزلوا بين فقه الدعوة وبين فقه الأصول، وأقاموا قواعد علم الأصول وأضاعوا قواعد فقه الدعوة.

والإضاعة هنا لا تعني التَّرْك، وإنما تعني الدمج بين الفقهين وتحويلهما إلى فقه واحد تغلب فيه لغة الأصوليين على لغة الدعاة، حتى صارت الدعوة مغمزا على أَلْسِنة الفقهاء، فيقولون على سبيل التصغير والتقليل من شان المرء .. هذا واعظ أو متكلم مع أن الموعظة جزء لا يتجزأ من لغة الدين: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل:١٢٥].

والحق الذي لا غبار عليه أن للدعوة فقه ورجال، وللأصول والفروع فقه ورجال، ومن شرط فقه الدعوة في الداعي علمه ولو بالحد الأدنى من فقه المذهب حيث يحصل به سلامة المخاطبة للناس في أهم أمور دينهم وبهذا الحد الأدنى يتميز الداعي السليم من المدعي العقيم.

ومن أهم شروط الداعي السليم:

- تحقيقه الحد الأدنى من المذهب.
- استقامته المشهود له بها وعدالته.
- انتماؤه لمشيخة معتبرة.
- سلامة منهجه من دعوات السياسة والتسييس بالعموم.
- إلمامه بفقه المعاملة الشرعية مع كافة الناس (الدين المعاملة) .
- براءته من داء الحزبية وغلو الطائفية والطبقية، وجنوح الفكر العلماني والإلحادي وغيرها من الأفكار المسيسة.

وفي شرط حامل (علم فقه التحولات) كونه مُطّلِعاً على رباعية أركان الدين ومقرِّراً لها من خلال تجديد لغة فقه الدعوة وصيانة أوعية علم الأصول

الأبوية المسندة، كما أن من شروط الأصولي السليم ما يلي:

١. اطلاعه وتحقيقه قواعد المذهب الذي ينتمي إليه مع نصيب من الفقه المقارن.
٢. عدم تعصبه المذهبي المخل بالعلاقة الشرعية بين المسلمين.
٣. كونه يستمد حجته من نصوص العلم في البيان والإقناع غير مستعين بسلطة، أو فئة، أو جماعة مسلحة، أو تنظيم مسيس.
٤. انتماؤه لمشيخة معتبرة تمتد جذورها سنداً وعدالةً إلى أصول المذهب وأوعيته.
٥. سلامة علاقته الاجتماعية بين الناس من القادح الشرعي.

وقد يجتمع الداعي والأصولي في ذات واحدة وهدف واحد عند زوال العقد المركبة بين الوظيفتين والفقهين، فيسند كل منهما الآخر بالشروط الآنفة المعتبرة، وبهما تتسع دائرة التأثير الدعوي والفقهي بين الناس.

الدرس السابع

أهمية فقه التحولات وعلاقته بفقه الدعوة إلى الله

فِـي مَطْلَـعِ البَعْثَـةِ كَانَ المُصْطَفَىٰ   يَدْعُـو إِلَـىٰ التَّوْحِيـدِ لِلّٰـهِ العَلِي
مُجَـرِّداً دَعْوَتَـهُ عَمَّـا أَتَـىٰ   مِنْ بَعْدُ مِنْ عِلْمٍ وَشَرْعٍ مِفْصَلِي
وَالأَصْـلُ ذِكْـرُ مَا جَـرَىٰ مِـنْ قَبْلِهِ   لِلْكَافِرِيـنَ مِـنْ هَـلَاكٍ مَرْحَلِـي
وَدَعْـــوَةٌ لِلْجَاهِلِينَ حَيْثُما   كَانُوا عَلَىٰ النَّهْجِ البَغِيضِ الأَرْذَلِ
عِبَـادَةُ الأَوْثَـانِ وَهْـيَ عِلَّـةٌ   حَارَبَهَـا بِفِعْلِـهِ وَالمِقْـوَلِ
دَاعٍ إِلَـىٰ التَّوْحِيـدِ بَيْـنَ قَوْمِـهِ   مُخَالِفـاً نَهْـجَ اعْتِقَـادٍ جَاهِلِـي
وَهٰـــذِهِ وَظِـيـفَـةٌ قَـطْـعِيَّـةٌ   لِفِقْـه عِلْـمٍ خُـصَّ بِالتَّحَـوُّلِ
فَـوَائِـدٌ عَظِيمَةٌ فـي دَرْسِـهِ   لِأَنَّـهُ جُـزْءُ الحَدِيـثِ المُكْمِـلِ

يشير الناظم إلى أهمية فقه التحولات في الدراسة الرباعية لأركان الدين، وتأتي أهمية (فقه التحولات) بين ن
ماذج الفقه الأصولي من عدة عوامل:

١. أن فقهَ التحولات فقهٌ مستنبطٌ من المصدرين الأساسيين كتاب الله وسنة نبيه.
٢. كونه فقهاً يختص بأمر الدعوة إلى الله وتجديد لغة البيان الدعوي في عصور العلم النظري والتطور المادي.
٣. كونه علماً يعالج مسألة الدمج بين مجموعتي العلوم الشرعية

وبين العلوم النظرية والتطبيقية ، ويربط المجموعتين وثمراتهما بالقران والسنة.

٤. يعمل على تحرير العقل المسلم من لوثة الشعور بقصور الدين عن العلم، أو ما يسمى بتناقض العلم مع الدين.

٥. يوجه العلم النظري والتطبيقي إلى المجال الشرعي الذي خلق من أجله، ويوظفه توظيفاً علمياً لا ينفك عن علوم الثوابت الثلاثة، بل يعتبر جزءاً من وحدتها الموضوعية والشرعية.

٦. يبين أهمية الركن الرابع، أو الأمر الرابع من حديث جبريل فيما يخص علم آخر الزمان، وما يخص صيانة قواعد وتطبيقات علم الإسلام والإيمان والإحسان، فيكون علم فقه التحولات علم ربط وصيانة، وعلم حفظ للأمانة، وعلم تحذير ونذارة لأهل الخيانة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

٧. يحقق المعنى المتكامل من وصف العلماء حديث جبريل (بأم السنة) وقوامه وضع الموضوع الرابع من الحديث في موقعه النصي قراءةً، وموقعه الشرعي تقريراً وحكماً.

٨. سبق للعلماء والمحدثين وضع الأركان الأربعة مجتمعة في سرد النص الحديثي، فحققوا بذلك الوحدة الموضوعية، ولكنهم عزلوه عن التقرير الشرعي ركنيةً ومصطلحات، وشرحاً علمياً يجمع بين القواعد والتطبيقات.

٩. لا نشتغل في تقرير هذا العلم ببحث أسباب العزل للوحدة الشرعية للأركان عند علماء الأصول والفروع، وإنما نشتغل بإعادة الأمر الرابع إلى موقعه العلمي والعملي متجاوزين مسالة الهمز واللمز وافتراض الأسباب، وهذا ما قد يشتغل به بعض أهل الإفراط

والتفريط ممن يستهويهم (فقه التحولات) ليؤدوا به غرضاً نفعياً في الطعن والتشفي من أوعية الحكم والعلم العدول، ونحن في تقريرنا لهذا العلم نبرأ من كل من يوظف (علم المتغيرات) للإثارة والصراع، أو الخوض فيما يفسد علاقة الأمة بقواسمها المشتركة في الدين.

١٠. علم فقه التحولات علم يجمع أشتات الأمة من حيث التقرير الشرعي لمسالتين هامتين هما:

الأولى: مسالة الحكم والاختلاف حوله وما تفرع عن ذلك.

الثانية: مسالة العلم والاختلاف فيه وما تفرع عن ذلك.

١١. فقه التحولات يعيد قراءة التأصيل الشرعي في هاتين المسالتين الحكم والعلم وما تفرع عنهما إلى أصول الاستدلال بالمصدرين الأساسيين مع اعتبار العمل بالمذاهب والأقوال الأخرى بشرطين:

الأول: سند المذهب وعدالته.

الثاني: تسلسل المتلقين والآخذين للمذهب على أصوله دون انحراف عقدي أو مذهبي أو فكري متحول.

الثالث: عدم ارتباط أوعية المذهب في فروعه بنزعة طائفية أو عقدية أو فكرية سياسيه تخالف منهج أوعية الأصول المعتمدة مع اعتبار علاقة الشواذ بالمذهب من حيث الهوية لا من حيث المنهج[1] فالهوية قاسم مشترك أساسه علم الأصول في أوعيته المسندة، أما المنهج فقد يختلف من عصر إلى آخر، ومن أوعية إلى أخرى بعوامل التحولات الفكرية والسياسية إما اندماجا وإما انفصاما وانفصالا، وهذه مسالة تهم فقه التحولات أكثر من غيره، وبهذا الاهتمام تستعيد الأمة قواعد القواسم المشتركة هويةً وأصولاً وفروعاً ومتغيرات.

الدرس الثامن

إعادة ترتيب مواقع العلم بعلامات الساعة في فقه التشريع الإسلامي

مُهِمَّةُ العِلْمِ الَّذِي نَرْبِطُهُ بِمِثْلِهِ مِنْ دِينِ خَيْرِ مُرْسَلِ
إِعَادَةُ التَّرْتِيبِ لِلْفِقْهِ الَّذِي أَهْمَلَهُ المَاضُونَ بِالعُذْرِ الجَلِي
وَجَعَلُوا العلمَ بِهِ مُقَرّراً في فِقْهِ إيمانٍ بيومٍ مُقْبِلِ
وليسَ في هذا دَلِيلٌ واضحٌ والفصلُ عينُ الحَقِّ بالتَّأَمُّلِ

يشير الناظم إلى أن من وظائف فقه التحولات إعادة ترتيب موقع الركن الرابع إلى موقعه الموضوعي والشرعي، والفصل بين العلم بالساعة وموقعها من الإيمان باليوم الآخر وبين العلم بعلامات الساعة وموقعها من (فقه التحولات) ، أو علم المتغيرات كأمر رابع من أمور الدين ، تبعاً للنص النبوي ، مع إعذار علماء الأصول في ذلك، ويؤكد هذا التقسيم قول جبريل عن القسم الأول (**اخبرني عن الساعة**) قال: (**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**)، وهذا ما يتعلق بالقيامة والنفخ في الصور ، وأمرها عند الله لا يجليها لوقتها إلا هو، والنفخ في الصور آخر العلامات الكبرى وعلمه عند الله.

أما القسم الثاني وهو موضوع (فقه التحولات) فعلمٌ مستقلٌّ عن قيام الساعة وسابقٌ لها على ممر العصور ، فيتقرر كونه علماً خاصاً له أصوله وقواعده ومصطلحاته وفروعه وتطبيقاته ، فأصوله الكتاب والسنة، وقواعده

الثوابت والمتغيرات، ومصطلحاته مقابَلَةُ معاني الكلمات والعبارات التي جرت على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مجموع العلم بعلامات الساعة، وسنخصص لها قسماً خاصاً يجمع بين ألفاظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعناها الاصطلاحي في فقه التحولات وفروع التقسيمات الشرعية للعلامات والأمارات والفتن والفتن المضلة والأشراط والملاحم، وتطبيقات الربط النصي بين الأحاديث والوقائع على وجه التقريب، وليس على وجه القطع.

وفي هذا تصحيح لما وضعه علماء الأصول من ربطهم علم الساعة بركن اليوم الآخر من أركان الإيمان.

والأصل أن علمَ الساعة علمٌ مستقلٌّ عن الساعة كما ورد في حديث جبريل من سؤاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**أخبرني عن الساعة قال ليس المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، وبهذا الجواب انقطع الكلام عن الساعة التي لا يجليها لوقتها إلى هو قال: «**فأخبرني عن أماراتها .. قال أن تلد الأمة... الخ**».

فعلم الساعة وأماراتها منفصلٌ تماماً عن اليوم الآخر ، ومرتبطٌ بما قبله من حياة الأمم والشعوب ، وفق النصوص الشرعية في الكتاب والسنة.

الدرس التاسع

حكم من لم يؤمن بالركن الرابع من أركان الدين

فِقْـهُ العَلَامَـاتِ لَـهُ شُـرُوطُهُ ... فَلَيْـسَ فِيـهِ حُكْـمُ عِلْـمِ الأُوَلِ
لا يُصْـدِرُ الأَحْـكَامَ فـي مَنْهَجِـهِ ... بِقَـدْرِ مَـا يَدْعُـو إِلَـىٰ التَّأَمُّـلِ
لِأَنَّـهُ عِلْـمٌ لِـكُلِّ مَـا طَـرَا ... أَوْ مَا سَـيَأْتِي في مَدَىٰ المُسْتَقْبَلِ
فَالخَائِضُـونَ حَـوْلَ هٰـذَا أَخْطَؤُوا ... وَالحُكْمُ فِيهِ مِنْ صُنُوفِ الجَدَلِ

يشير الناظم إلى أنه كثيراً ما يتناول البعض أمر الإيمان بركنية العلم بعلامات الساعة ويتساءل عن حكم الذين سبقوا ولم يدرجوا هذا العلم في أركان الدين، فهل يتوجه عليهم حكمٌ بذلك؟

والجواب: أن فقه التحولات في هذا الموضوع لا يرضخ لقواعد فقه الأصول من حيث إصدار الأحكام على الموافق والمخالف ، وإنما يبسط العلم بالأمر كعلم مجرد عن الحكم في الإيمان به وعدمه ؛ لأنه علمٌ قائمٌ على المتغيرات، خلافاً لعلم الأصول القائم على فقه الثوابت، فالثوابت قائمةٌ على مسألة الفعل المؤدي للثواب أو الترك المؤدي للعقاب، بينما فقه التحولات فقهٌ وِقَائِيٌّ يضع الضوابط للمسلم التي تمنعه من الوقوع في أسباب الفتنة وتبعاتها وآثامها ، المؤدية إلى إفساد العلاقة بين الناس ، مما يكون سبباً في ثواب متعلّقٍ بوقاية من الفتن والمضلات، أو عقاباً عند اقتحامها بعد العلم بها.

ولهذا ففقه التحولات لا يبحث في هذه الجزئية، ولا يثير فيها الجدل،

وغالب المتعرضين للإثارة هم طلبة العلم المتأثرين بأحكام فقه الأصول والفروع دون معرفة ضوابط فقه التحولات والمتغيرات، وقد فتحوا لأنفسهم ولغيرهم باباً من الجدل تستوحش منه القلوب، وتعيَى منه العقول، وتضيع به فائدة العلم وأهدافه الشرعية.

الدرس العاشر

نفي علاقة الركن الرابع بالإجماع المعتبر عند فقهاء الأصول

يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ فِقْهٍ بَدَا لِشَرْحِ أَشْرَاطِ الزَّمَانِ المُقْبِلِ
بِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا مَضَى مِنْ صِفَةِ الإِجْمَاعِ بَيْنَ المُثُلِ
وَالحَقُّ أَنَّ الفِقْهَ هٰذَا خَارِجٌ عَنْ صِفَةِ الإِجْمَاعِ فَافْهَمْ ما يلي
لِأَنَّهُمْ قَدْ تَرَكُوهُ جُمْلَةً مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ أَوْ بِنَاءٍ هَيْكَلِي
وَخَيْرُ مَا أَبْقَاهُ جُلُّ مَنْ مَضَىٰ حِفْظُ النُّصُوصِ رَغْمَ بَعْضِ الخَلَلِ

يشير الناظم إلى اعتقاد بعض المتأثرين بظاهرة إصدار الأحكام أن القول بركنية الأمر الرابع والتناول لتفصيلاته مخالف للإجماع، ويترتب على ذلك إصدار حكم المخالف لما أجمعت عليه الأمة.

والجواب: أن فقه التحولات لم يندرج تحت طائلة الإجماع جملة وتفصيلا، حيث لم يرضخه العلماء للتناول كما أرضخوا الأركان الثلاثة التي أقيم عليها مفهوم الإجماع، ولأنه خارج عن فقه الأصول وإجماع علمائه فهو: علم مرتبطٌ بالأصل الأول قبل وضع علم الأصول ومصطلحاته، ومتحررٌ بذلك عن القيود الاصطلاحية المتداولة قديماً وحديثاً.

ولا يصح ربط فقه التحولات قواعدَ ومصطلحاتٍ بفقه الأصول ومبادئه إلا من حيث المشابهة لا من حيث التوافق التام بين العلمين.

والذين يقولون : كلاهما علمٌ واحدٌ مأخوذ عن أصول واحدة وبلاغ واحد فلا حاجة للفصل بينهما بحجة اختلاف المسمى ؛

فالجواب أن الفصل لم يكن بظهور فقه التحولات ، وإنما الفصل المشين كان بعزل الركن الرابع عن قواعد دراسة الحديث المجمع على تسميته(بأم السنة) منذ عهد التدوين.

ولعل الحسنة الباقية من عصر التدوين هي حفظ الأحاديث الخاصة بهذا العلم وتبويبها، والتصنيف فيها مع تبويبها وتحقيق مراتب الصحة أو الخلل فيها رواية أو سنداً أو متناً أو غير ذلك ، فجاء هذا الجهد محموداً ومفيداً، ولكنه لم يوظف وظيفته الشرعية سواء في قواعد العلم أو في مصطلحاته.

ومن ذلك حماية هذا العلم عن العبث الملاحظ في بعض ما كتبه المتناولون لعلم الساعة وعلاماتها من المعاصرين، فهؤلاء حشدوا نصوص الأحاديث حشداً ينزع بالعلامات إلى الغربة عن قواعدها الشرعية ، وقاموا بإسقاطاتٍ مستعجلةٍ وتطبيقٍ عشوائيٍّ بعد مقارنتها بواقع المتغيرات في المراحل .

الدرس الحادي عشر

فقه التحولات بين الفروض المعتبرة أصولياً

فَرْضَانِ عِنْدَ العُلَمَاءِ جُمِعَا　　فِي كُلِّ أَمْرٍ وَاضِحٍ مُدَلَّلِ
إِمَّا يَكُونُ فَرْضَ عَيْنٍ حُكْمُهُ　　أَوْ دُونَها كِفَايَةُ المُشْتَغِلِ
وَفِقْهُ عِلْمِ السَّاعَةِ المُبْدِي لِمَا　　قَدْ كَانَ مَخْفِيّاً عَنِ الكَشْفِ الجَلِي
مَوْقِعُهُ «فَرْضٌ لِوَقْتٍ» عِنْدَمَا　　حَاجَتُهُ تَظْهَرُ حِينَ المُشْكِلِ

يشير الناظم إلى تقسيمِ العلماءِ الفرضَ إلى قسمين:

- فرض عين.
- فرض كفاية.

ويتساءل البعض عن موقع علم فقه التحولات بين هذه العلوم.

والإجابة تشير إلى أن فقه التحولات ليس فرض عين ولا فرض كفاية، وإنما هو (فرض الوقت)، أو علم الحالة يحتاجه المسلم مرتبطاً بالزمن والحدث أو الحالة، وبه لا بغيره تفسر تحولات المراحل، وتوصف الأحداث، وتتخذ المواقف.

الدرس الثاني عشر

فقه التحولات قراءات لما وراء النصوص من الرمز

عِلْـمُ الأَمَـارَاتِ لَـهُ قَوَاعِـدٌ فِـي فِقْهِـهِ وَشَـرْحِهِ المُسْتَرْسِـلِ
فَـكُّ الرُّمُـوزِ إِنْ أَتَـتْ فـي نَصِّـهِ لِأَنَّ خَلْـفَ الرَّمْـزِ أَمْـرٌ يَجْتَلِـي
وَفِيـهِ أَنَّ الإِخْتِـلَافَ حِكْمَـةٌ في وَصْفِ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ المُعْضِلِ
تَخْتَلِـفُ الأَقْـوَالُ فـي إِيرَادِهـا ضَعْفاً وحُسْـناً بَيْنَ أَهْـلِ الجَدَلِ

يشير الناظم إلى أن من مميزات علم فقه التحولات: هو أن قراءتُه للأمور المتناولَة في علم المتغيرات ليست من واقع اختلاف العلماء حول الظاهرة ووقوعها أو نفيها، وإنما عمق النظر في سنة الاختلاف وهدفها الشرعي حين ورودها بالروايات المتعددة ، التي تجعل بعض العلماء يستغرق في أمر الاختلافات النصية والنقاش الجدلي حولها من حيث الصحة والضعف والوضع.

فالإمام المهدي على سبيل المثال أول العلامات الكبرى، والأحاديث في شانه كثيرة، والاختلافات بين المذاهب في أمر تعيينه ومكان ظهوره مثيرة، وفي فقه التحولات أن هذا الاختلاف ناتج عن اختلاف الروايات، واختلاف تعليلات أصحاب المذاهب، وحكمة ذلك إخفاء حقيقة شخصيته حتى لا يستدل بها على مكانه وزمانه أحد، ويظل الأمر محجوباً بصراع العلماء والمذاهب في ذلك حتى يأتي وعد الله، فيظهر بين حيرة الحائرين، وجدال المتعارضين، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨].

وعلى هذا المبدأ الذي يتبناه فقه التحولات فالاختلاف حول الأمر حكمة،

والانشغال بذلك متاهة معرفية لا حل لها ولا مخرج إلا التسليم بأمر الله والاستفادة من النصوص للوصف التقريبي وليس للإفصاح المطلق، والله أعلم.

الدرس الثالث عشر

قاعدة العمل بالحديث الضعيف في فقه التحولات

يُعْمَلُ فـي عِلْـمِ العَلَامَـاتِ بِمَـا ... قَـرَّرَهُ أَهْـلُ الحَدِيـثِ المُجْمَلِ
بِالأَخْـذِ بِالصَّحِيـحِ وَهْـوَ حُجَّـةٌ ... وَحَسَـنُ الحَدِيـثِ خَيْـرُ مَنْهَـلِ
أَمَّـا الضَّعِيـفُ فَهْـوَ فـي أَقْسَـامِهِ ... مُسْـتَأْنَسٌ بِـهِ بِرَغْـمِ المُشْـكِلِ
إِذَا تَقَـوَّىٰ بِحَدِيـثٍ مِثْلِـهِ ... أَوْ طَابَـقَ الوَاقِـعَ فـي التَّشَـكُّلِ

يشير الناظم إلى الأخذ في علم فقه التحولات بالحديث الشريف على مراتبه الثلاث الصحيح والحسن والضعيف.

ويعتمد في هذا الباب ما خدمه العلماء العدول أهل السند والعدالة ممن اجتمعت فيهم شروط السلامة المندرجة تحت القاعدة الاصطلاحية لفقه التحولات : حفظ اللسان من الذم وحفظ اليد من الدم، ويستدل بالحديث الضعيف بشرطين:

الأول: ورود روايات أخرى تقويه.

الثاني: مطابقته للواقع بالشواهد.

وغالب أحاديث علامات الساعة ذات السند الضعيف قام بتحقيق أحاديثها جملةٌ من الباحثين والمحققين ، ومنهم:

- الشيخ التويجري في كتابه : إتحاف الجماعة في أحاديث علامات الساعة.
- فقه علامات الساعة لمحمد بن إسماعيل المقدم.

- فقه الفتن للإدريسي
- تحقيق السنن الواردة في الفتن للداني للمباركفوري

وغيرها من المؤلفات الحديثة التي اشتغلت بهذا الفن وتحقيقه، والأصل أن ضعف سند الحديث لا يفسد موضوع متنه، وإنما يأتي الضعف من الرواية أو السند أو اضطراب المتن، فيكون سبباً في احتجاج المخالف على فساد الفكرة المتناولة، والتقليل من شأنها، مع العلم أن مواضيعَ العلم بعلامات الساعة مواضيعُ واضحة المعالم بقراءة الواقع المتحول.

وهنـاك العديـد من الباحثين الذيـن وظفوا علم الحديـث لمصلحة النقض والقبـض، وردوا العديـد مـن التعليـلات والفهـوم المطابقـة للعلامات كما فعـل بعضهـم مع السـيد المحدث ابـن الصديق الغمـاري في كتابـه «**مطابقة الاختراعات العصرية بما أخبر به خير البرية**»، وهو من وجهة نظرنا من أسبق المؤلفات التي تناولت موضوع التطبيقات للأشراط والعلامات والأمارات، وكان هجوم أولئك على كتابه وأسـلوبه شـديداً وغير منصف، مع أن العديد منهـم قـد وقع في ذات الأمـر عند المقارنـة بين الأحاديـث والواقع، وكانت المشـكلة لدى الجميـع غياب قواعد العلم بعلامات السـاعة والاعتماد على القراءة المجردة لمجموع الأحاديث الخاصة بالتحولات والمتغيرات .

وذلك كله مما يفتح باب الاجتهاد الشخصي في المقارنة والمطابقة، فعلى سبيل المثال لا الحصر تأكيد الكثير من أولئك على قيام خلافة راشدة قبل المهدي، والاعتماد على الفهم المجرد لحديث ابن حوالة، وما يفهمه الباحثون الميَّالون للفكرة ذاتها لسبب وآخر من هذا الحديث.

والمعلوم أن مرحلة ما قبل الإمام المهدي كلها جورٌ وهرجٌ ومرجٌ تؤكده النصوص، وأنه لا استقرار ولا خلافة على الوجه المنصوص عليه إلا بظهور شخصية المهدي كذاتٍ ، وليس كدعوة لظهوره أو باسمه استباقاً وشعوراً ظنياً بالانتماء إليه أو التمهيد له، فهذا القول الأخرق قد هيأ أسباب الاختراق

الأجنبي في الأمة وضرب بعضها ببعض ، وهذا أنموذج من نماذج استخدام العلم بعلامات الساعة في غير موقعه، وإفساد الأمة باسم دينها وشرعتها المظلومة.

فالقراءة الشرعية تنبني على النظر في القواعد والمصطلحات أولاً قبل تطبيق النصوص على الواقع، وإذا توافقت القواعد مع القراءة الواقعية تصدر الإشارة إلى المطابقة على سبيل الاحتمال وليس القطع، وهذه قاعدة من قواعد فقه العلم بعلامات الساعة، وعلى هذا الأساس فعلم الحديث الشريف بمادته الشرعية صحيحاً وحسناً وضعيفاً لا تستقيم به القراءة لفقه التحولات إلا بدراسة قواعده الأساسية، وهي المنطلق الذي يعول عليه في القبول والرد لبحث الباحثين وفهم المعلِّلين والمحلِّلين.

الدرس الرابع عشر

موقف علماء الأصول والحديث من العلم بعلامات الساعة

فِـي عَصْرِ تَدْويـنِ العُلـومِ اتَّخَذوا أَهْـلُ الأُصـولِ مَوْقِفاً لَـمْ يَنْجَلِ
فَـخَـدَمُـوا ثَـوَابِـتـاً ثَـلَاثَـةً وَأَشْبَعوا التَّفْصِيلَ بَعْدَ المُجْمَلِ
وَرَابِـعُ الأُمُـورِ ظَـلَّ مُهْمَـلاً رَغْمَ اتِّحَادِ النَّصِّ نَصِّ المُرْسَلِ
لِأَجْـلِ هٰـذَا وَلِأَجْـلِ المُصْطَفَـىٰ نُحْيِي مَـوَاتَ الوِحْدَةِ المُنْفَصِلِ

يشير الناظم إلى أنه خلال مرحلة التدوين جمع العلماء أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، وظهرت مع هذا الجمع حاجة الأمة إلى ضبط متن ورواية وسند الأحاديث، فظهر علم الجرح والتعديل، وحشد المتخصصون في تحليل هذا العلم أحاديث (الثوابت والمتغيرات) في مؤلفاتهم وكتبهم الجامعة كالبخاري ومسلم والكتب الأربعة من معتمد أهل السنة وغيرها من المسانيد، وفعل مثلهم من خالفهم من الشيعة والأباضية والزيدية وبقية المذاهب والرؤى، ووضعوا قواعد مذهبهم ومادة خلافهم فيها وحولها من هذه الأصول المجتمعة ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً حول ما عرف بالأمر الرابع، وإنما جمعوا أحاديثه ومواضيعه في مؤلفات ومصنفات الكتب والمسانيد ، حتى ظهر عصر التصنيف فنقل المؤلفون الأحاديث على مراتبها في الكتب المتخصصة لأخبار الفتن والساعة على غير ضبط للمصطلحات والقواعد التي فعلوها مع الأركان الثلاثة المعروفة من حديث جبريل، وبقيت كذلك كمعلوماتٍ شرعيةٍ تفتقد إلى الخدمة الشرعية الواضعة لها في موقعها من علم المتغيرات.

الدرس الخامس عشر

فقه التحولات وعلاقته بكافة العلوم الشرعية

كُلُّ العُلُـومِ مُنْذُ عَصْـرِ المُصْطَفَىٰ ... مَجْمُوعَـةٌ فِيمَـا أَتَـىٰ مِـنْ مُنْزَلِ
وَسُـنَّةُ المُخْتَـارِ عَيْـنُ ضَبْطِهَـا ... وَمَصْـدَرٌ ثَـانٍ لِحَـلِّ المُشْـكِلِ
يَجْمَعُهَـا حَدِيـثُ جِبْرِيـلَ الَّـذِي ... سَـمَّوْهُ «أُمَّ السُّـنَّةِ» المُكْتَمِـلِ
ثَـلَاثَــةٌ ثَـوَابِــتٌ نَـبْـنِـي بها ... أُصُـولَ هٰـذا الدِّيـنِ دُونَ كَلَـلِ
وَوَاحِـدٌ مَوْضُوعُـهُ عَلَائِـمٌ ... مِـنْ سَـالِفٍ وَحَاضِـرٍ وَأَوَّلِ
مَمْزُوجَـةٌ شُـرُوطُهَا فـي شَـرْعِنَا ... مَتَـىٰ دَرَسْـنَاها بِوَجْـهٍ أَشْـمَلِ
صِـيَـانَــةٌ شَــرْعِــيَّــةٌ لِـدِيـنِـنـا ... وَلُغَـةُ الدَّعْـوَةِ فـي التَّحَـوُّلِ

يشير الناظم إلى أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تناول ثمرات علم الأصول وما تفرع عنه من قواعد ومصطلحات ومسائل وأبواب وفروع وواجب ومتحتم ولازم وركن وفرض وسنة إلخ ؛ إلا بعد معرفتنا أصولَ التشريع وزمن تعيينه وتدرج الشارع في إبلاغه للأمة .

وهذا الأمر يندرج تحت مهمات فقه التحولات ؛ لأنه الفقه الذي يعتني بأسباب النزول ومناسبة التكليف والحكم زمانا ومكانا. بل ويعبر بوضوح عن معنى التحول من حكم شرعي إلى مثله ، كما هو في قصة التدرج في تحريم الخمر أو التدرج في مشروعية الصلاة والصوم، ودراسة الأوعية الزمانية التي كان فيها الحكم بالفعل أو الترك أو التعديل ،وقد تناول أهل العلم ذلك فيما سمي (بتاريخ التشريع) إلا أنهم نسبوه لفقه الأصول ،

واعتبروه تأصيلاً للتكليفات وهو كذلك.

إلا أن إعادة فقه التحولات إلى موقعه الرباعي حدَّد وظيفته في رصد الدراسة الشرعية لتاريخ النزول بالأمر ، ومبتدأ العمل به ، ومجريات التحول بالأسباب التي وقع فيها بعض المسلمين ، ليحصل التعديل أو الإضافة أو الحذف أو التكرار للآية والسورة مرة أو مرتين، وهذا بابٌ دَسِمُ المادة في فقه التشريع وتاريخه، ويحتاج إلى إفراد بحوث خاصة لذلك ، إلى جانب البحوث المتوفرة في المكتبة الإسلامية.

الدرس السادس عشر

مهمات فقه التحولات في المرحلة المعاصرة

مُهِمَّةُ الفِقْـهِ الَّـذِي نَصُوغُـهُ　　كَشْفُ الغُمُوضِ عَنْ جَمِيعِ العِلَلِ
عَبْـرَ الزَّمَـانِ وَالمَـكَانِ وَالوِعَـا　　مِـنْ حَامِـلٍ لِلْعِلْـمِ بِالتَّسَلْسُـلِ
وَآخِـــذٍ لِـلْـعِـلْـمِ دُونَ سَـنَـدٍ　　مِـنْ كُلِّ غِـرٍّ جَعْظَـرِيٍّ مُبْتَلِـي
أَوْ مُعْجَـبٍ بِعَقْلِـهِ مُعْتَـرِضٍ　　أَوْ بَاحِـثٍ مُثَقَّـفٍ مُسْـتَغْفَلِ

يشير الناظم إلى دور فقه التحولات في إبراز ما خفي على كثير من العلماء فضلا عن الدَّهْماء ، فيقول: يكاد فقه التحولات أن يكون الفقه المعنيَّ بتفاصيل قواعد وتطبيقات القراءة التاريخية للأوعية الزمانية والأوعية المكانية والأوعية الإنسانية، فالزمان والمكان والإنسان هما أصل ووعاء هذه الدراسة الهامة.

ودراسة التاريخ وفروعه علم من العلوم الخمسة التي يستقيم عليها مفهوم رباعية الأركان ، ويسمى اصطلاحاً في فقه التحولات (بعلم الربط بين الديانة والتاريخ)، وبهذا العلم يبطل العمل بكافة النظريات العقلانية المشتغلة بقراءة التاريخ ودراسته التجريبية العقلانية ، وتظل جهوداً علمية تعبر عن مدى اهتمام الإنسان لمعرفة الحقيقة تحت شاهد قول الله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [العنكبوت:٢٠]،

وفي الآية إشارة إلى فتح باب البحث العلمي في دراسة بدء الخلق لما فيه

من عمق النظر والتفكر ؛ ولكن النتائج العقلانية لا تمثل الحقيقة الناصعة وإنما يعبر عنها النص الشرعي المؤيد بالوحي الإلهي على نبيه محمد صلى الله عليه واله وسلم.

وأول مهمات فقه التحولات في هذا الصدد (ربط التاريخ بالديانة)، خلافاً لواقع النظريات العلمية العقلانية، فهي تفصل بين الديانة وقراءة التاريخ، وتجعل أساس يقينياتها ثمرات العقل اكتشافاً وحفريات ودراسات للمستحثات والآثار.

والدين لا يعارض هذه الدراسات ولا يمنعها، بل يدعو إليها ويأمر بها، وتكمن العلة في مفصل الانتماء للتكوين والخلق، فالعقل الإنساني الباحث لا يرى حاجة لمعرفة ما وراء الطبيعة من القوى الغيبية ما دامت المعرفة المباشرة قائمةً على دراسة الظواهر والمحسوسات، بينما الديانات السماوية ـ والسماوية فقط ـ تؤمن بدراسة الظواهر والمحسوسات، ولكن نتائجها العلمية إنما تعزى للخالق الرازق المبدع فاطر السموات والأرض ، أجراها على العقل البشري المكلَّف المكرَّم المزوَّد من الله بالقدرات الذهنية للمعرفة والبحث عنها في العالم المادي المجرد.

وأصل مرجعية الكفر العقل المجرد، وأصل مرجعية العقل المؤمن النص، فالنص في الإسلام يسبق العقل في الاحتكام ، وهذا هو أصل الاختلاف بين الإسلام والكفر على مدى التاريخ الإنساني ، وقد تناولنا هذه المسائل بالتفصيل والتعليل في جملة المؤلفات التي يجب العود إليها لكل دارس وباحث وطالب علم.

كما أن من نموذج الربط بين الديانة والتاريخ دراسة كافة الحضارات الإنسانية من وجهة النظر الشرعية، حيث يلاحظ المتابع لتحليلات المؤرخين العلمانيين ومن تابعهم في أساليب كتابتهم للتاريخ الفصلَ المتعمَّد بين لغة التاريخ ولغة الديانة، فيفسرون التاريخ مادةً علميةً لا علاقة لها بالدين، بل

جعلوها وسيلة لإبطال البرهان النصي في الكتب السماوية، وبلغ الأمر منتهاه في المرحلة المعاصرة أن خلطوا بين الديانات الشرعية والوضعية، ونسبوها إلى الخرافات والأساطير .. مع أن دين الإسلام ـ وهو الحجة الشرعية العلمية ـ يدين الفصل بين التاريخ والدين، كما يفرق بين الديانات الوضعية والديانات الشرعية، ويضع كلَّ رؤية في موقعها وحجمها المناسب.

الدرس السابع عشر

تقسيم العلوم والعوالم بين قواعد فقه التحولات وعقلانية الظن في علم المغالطة والمبررات

دِرَاسَـةُ التَّارِيـخِ في سَـيْرِ الـوَرَىٰ وَمَطْلَـعِ الوُجُـودِ مِثْـلِ الأَزَلِ
عِـلْـمُ لَـهُ قَـوَاعِـدٌ شَـرْعِـيَّةٌ فـي دِينِنَـا تَـرُدُّ إِفْـكَ الدَّجَـلِ
فَــأَزَلٌ وَأَجَــلٌ فـي أَمَــلٍ وَأَمَــدٌ وَأَبَــدٌ كَـمَـا تُلِي
أَمَّـا الَّذِيـن كَفَـرُوا بِعِلْمِنَـا فَـلَا يَـرَوْنَ غَيْـرَ عَصْـرِ الأَمَـلِ
مَرْحَلَـةُ الشَّـيْطَانِ دُونَ غَيْرِهَـا مَسِـيرَةُ الدُّنْيَـا وَفِكْـرُ مَرْحَلِـي

يؤكد الناظم أن فقه التحولات يعتمد في كافة استدلالاته على علم الحديث روايةً ودرايةً، وبه تستقيم كافة الحجج والبراهين التي تفرَّد بها العلم بعلامات الساعة .

إذ إن المصدر الثاني لهذا العلم هو الحديث الشريف، وخاصة في أحاديث علامات الساعة وفقه الفتن والفتن المضلة، وبهذه الأحاديث وارتباطها بما سمي (بفقه التحولات) اصطلاحاً تحددت وظيفة هذا العلم مكاناً وزماناً وإنساناً بدءاً من الاعتماد على حديث أم السنة وقواعده ومصطلحاته وتطبيقاته ، وقد سبقت الإشارة لذلك .

وأول شاهد على ذلك أن حديث جبريل هو من آخر الأحاديث التي سُمعت منه صلى الله عليه وآله وسلم بعد عودته من حجة الوداع ـ وقبل وفاته بنحو من ثمانين يوماً كما ذكر الشُّرّاح ـ فيكون بهذا حديثاً جامعاً لكافة أمور الدين.

ويدخل في معنى أمور الدين كلُّ ما يختص بالحياة الدنيوية وضوابطها الشرعية، إذ هي لا تنفك عن أمر الرسالة المحمدية دعوةً وفقهاً أصولياً وغايةً ومصيراً، ويبطل بهذا قول من قال: لا بدعةَ في أمر الدنيا وإنما البدعة في أمر الدين، وهذا قولٌ باطلٌ من أساسه ، يُبطله العلم بالركن الرابع من أركان الدين ، وهو العلم الذي يخص شؤون الدنيا وما يستجد فيها من علومٍ نظريةٍ وتطبيقيةٍ واختراعٍ واكتشافٍ وأنظمةِ حكمٍ وإدارةِ علمٍ ومؤسساتِ اقتصادٍ وتربيةٍ وتعليمٍ وثقافةٍ وإعلامٍ ومعارفَ حاضرةٍ ومستقبليةٍ. كلُّها منضبطةٌ ومندرجةٌ تحت قواعد العلم بعلامات الساعة وأحاديثه المفصلة تفصيلاً بيناً وواضحاً، وعند التقصي والمتابعة نجد الحديث الشريف بعمومه يمثل المزيج الصحيح بين علوم الثوابت والمتغيرات.

الدور الأول بتدأ الخلق للإنسان

فـي أَوَّلِ العَهْـد أَقَـامَ رَبُّنَـا ... فِينَـا بِمَـا أَوْحَـى لِكُلِّ مُرْسَـلِ
مِـنْ «آدَمٍ» وَهْـوَ أَسَـاسُ خَلْقِنـا ... سَـوَّاهُ مِـنْ طِينٍ وَحَمْـأٍ صَلْصَلِ
وَفِيـهِ أَلْقَـىٰ نَفْخَـةَ الـرُّوحِ الَّتِـي ... أَحْيَتْـهُ إِنْسـاناً كَرِيـمَ المَنْـزِلِ
عَلَّمَـهُ الأَسْـمَاءَ وَهْـيَ جَمَّـةٌ ... تُبْـدِي نُبُـوغَ العَقْـلِ بِالتَّعَقُّـلِ
بَـدِيـهَـةٌ وَقُـــدْرَةٌ خَـارِقَـةٌ ... تُحَقِّـقُ المَطْلُـوبَ لِلْمُشْـتَغِلِ
وَعْـيٌ وَإِحْسَـاسٌ وَذَوْقٌ فِطْـرَةٌ ... يَزِيدُهَـا مَـا عِنْـدَهُ مِـنْ أَمَـلِ
عَقْـلٌ وَتَفْكِيـرٌ وَرَأْيٌ ثَاقِـبٌ ... وَالطَّبْـعُ غَـلَّابٌ لِمَنْ لَـمْ يَكْمُلِ
وَالشَّـرْعُ مِيـزَانٌ لِمَـنْ حَكَّمَـهُ ... وَقَدْ يَكُونُ الشَّـرْعُ بَـابَ الحِيَلِ
وَهٰكَـذا كَـوَّنَ إِنْسـاناً بَـدا ... «بِـآدَمٍ» مُـمَـيَّـزٍ فـي المُثُلِ
وَحَظُّـهُ أَنْ يَبْتَلِيـهِ دَائِمـاً ... في الدِّيـنِ وَالدُّنيـا بِسَـيْرٍ أَجَلِي

يفصل الناظم سير الحياة الإنسانية ، ويؤكد أنه منذ عهد آدم والبشرية تنهج إحدى طريقين، وعليهما يسير التاريخ الإنساني:

الأول: التفسير الشرعي النبوي الأبوي للتاريخ.

الثاني: التفسير الأنوي الوضعي العقلاني.

وأساس التفسير الشرعي الكتب السماوية ورسالات الرسل والأنبياء، وخاتِمها وآخرها وميزان صحتها وعدم صحتها رسالة خاتم الأنبياء صلى

الله عليه وآله وسلم وكتابه القرآن الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فُصِّلَت:٤٢].

والقرآن يصف التاريخ الإنساني على نموذجين:

١. نموذجٌ آمن بالرسالات ومتعهم الله إلى حين.

٢. ونموذجٌ كذبوا بالرسالات فأهلكهم الله أجمعين.

فالتاريخ الإنساني تاريخٌ مربوطٌ بأمر الديانة لا ينفصم عنها ولا ينفك، والأمثلة من هذا كثيرة في كتاب الله تعالى كقوله: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١﴾ [الأنبياء:١١]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل:١١٢]، ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء:١٦-١٧].

وأساس التفسير الأنوي الوضعي عقلُ الإنسانِ المُعْرِض الغافل المُسْتَتْبِع لكفرِ الشيطان وعقيدتِه الأَنَوِيَّة: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص:٧٦]، والشيطان هو أول من كفر وعصى أمر ربه حين أمره بالسجود لآدم: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة:٣٤].

الدرس التاسع عشر

نظريات المشروع الإبليسي الأنوي

وَأَعْظَمُ الإِشْكَالِ إِبْلِيسُ الَّذِي
أَبْدَىٰ لِأَجْلِ الكُفْرِ شَرَّ السُّبُلِ

مَشْرُوعُهُ الإِضْلَالُ وَهْوَ نَهْجُهُ
فِي وَاقِعِ الإِنْسَانِ بِالتَّرَذُّلِ

أَبَىٰ السُّجُودَ لِلتُّرَابِ إِذْ رَأَىٰ
فَوَارِقَ العُنْصُرِ عَيْنُ المَدْخَلِ

وَخَالَفَ الأَمْرَ الَّذِي نُودِي بِهِ
مُحكِّماً قَانُونَ فَهْمٍ مَرْحَلِي

مُتَّخِذاً ضَوابِطاً عَقْلِيَّةً
كما رآها حُجَّةً لِلْجَدَلِ

وَلَمْ يُرَاعِ أَنَّها مَخْلُوقَةٌ
بِقَوْلِ (كُنْ) بِشَاهِدٍ مُدَلَّلِ

فَكَانَ مَطْرُوداً بِسُوءِ فَهْمِهِ
مُسْتَكْبِراً بِعِلْمِهِ المُخْتَزَلِ

وَمُنْظَراً فِي عُمْرِهِ مُؤَجَّلاً
حَتَّىٰ إِلَىٰ يَوْمِ قُضِي في الأَجَلِ

وَمُقْسِماً بِاللّٰهِ أَنْ لا يَنْثَنِي
عَنِ الأَذَىٰ لِآدَمِ المُسْتَقْبَلِ

إِذْ كَانَ لا يَرْضَىٰ بِغَيْرِ نَفْسِهِ
مُسْتَشْعِراً جَدَارَةَ المُفَضَّلِ

وَقَالَ فِي حِوَارِهِ لِرَبِّهِ
خَيْرٌ أَنَا مِنْ آدَمٍ وَحُقَّ لِي

خَلَقْتَنِي مِنْ مَارِجٍ وَأَصْلُهُ
مِنَ التُّرَابِ المُوحِلِ المُحَوَّلِ

فَأَلَّهَ العَقْلَ وَقَانُونَ الأَنَا
وَخَالَفَ الأَمْرَ بِفِقْهٍ دَجَلِي

وَقَائِلاً رَبِّ بما أَغْوَيْتَنِي
لَأَقْعُدَنَّ بِالصِّرَاطِ المُوصِلِ

مُحْتَنِكاً جُلَّ الذَّرارِي دَائِماً
بِعِلَّةِ التَّحْرِيشِ وَالتَّكَتُّلِ

وَفِتْنَةِ الدُّنْيا وَنَفْسٍ وَهَوىً
وَالحِقْدِ وَالبَغْضَاءِ بَيْنَ المُثُلِ

وَقَالَ مَوْلانا لَهُ اذْهَبْ حَيْثُما
أَرَدْتَ وَاجْلِبْ مَنْ بُلِي بِالحِيَلِ

إِلّا عِبَـادِي المُخْلَصِيـنَ حُصِّنُـوا مِنْ شَـرِّ سُلْطانِ الفَسادِ المُخْذِلِ

يشير الناظم إلى أول مراحل المشروع الإبليسي في احتناك المخلوق البشري، فكان مبتدأُ هذا المشروع رفضه للسجود لآدم بأمر الله، ونظر في فوارق العناصر بين التراب والنار محكِّماً عقلانيَّته التي بنى عليها موقفه، مخالفاً لأمر من يقول للشيء: كن فيكون، فكان حظه الطرد واللعنة باستكباره على ربه ورفضه تلبية الأمر الإلهي الملزِم، ولم يقف عند هذا الحد، بل طلب من ربه الإنظار إلى يوم الدين، فكان له الإنظار إلى يوم الأجل المعلوم عند الله، وأقسم الشيطان أن يلاحق ذريةَ آدم فيُغْوِيَهُمْ أجمعين بأساليبه وحيله التي عبَّر عنها الناظم بالتحريش والتكتل، وفتنة الدنيا والنفس والهوى، وما يترتب على ذلك من حقد وبغضاء بين الناس، وأطلق المولى له العنان في الاحتناك المزعوم، وبَيَّنَ له أن لله عباداً مخلَصين لا يَخْلُصُ الشيطانُ إليهم ولا يفتنهم بغروره.

وجملة القول في هذا المشروع الشيطاني الخطير كونه:

١. قد جسد عقيدة الكفر التي لم يرضاها الله لعباده: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر:٧].
٢. مخالفة الأمر والاستكبار وركوب الهوى.
٣. اتخاذ الضوابط العقلية الموسومة بمعنى (الأنوية) أنا خير منه.
٤. تهديده باحتناك الذراري إلى يوم القيامة.
٥. كانت نتيجة موقفه الطرد واللعنة.
٦. تهديده المباشر للبشرية بإشاعة (تحكيم العقل والهوى) فيهم حتى أبادوا بعضهم بعضاً بالهوى والاستكبار.
٧. استثنى المولى عباده المخلَصين من احتناك الشيطان وعبثه وكفره، وأبدت ذلك وقائع النص النبوي المشير لذلك.

الدرس العشرون

تطبيقات مشروع الإغواء الإبليسي

وبَـــدَأَتْ مَـعْـرَكَـةٌ ضِمْنِيَّةٌ مَـا بَيْـنَ شَـيْطانِ الأَنـا وَالرَّجُلِ
وَأَعْلَـنَ الحَـقُّ عَلَـىٰ رَأْسِ المَـلا عَـدَاوَةَ الشَّـيْطَانِ لِلْمُسْـتَغْفَلِ
يَـا آدَمـاً هٰـذَا عَـدُوٌّ حَاقِـدٌ فَاحْذَرْ وَحَوَّاءَ الخِدَاعَ المِفْصَلِي
وَهٰـذِهِ جَنَّـةُ خُلْـدِي فَانْزِلَـنْ وَعِـشْ بها فـي مَشْـرَبٍ وَمَأْكَلِ
مِنْ حَيْثُ شِـئْتَ مِـنْ جَنَاهَا رَغَداً إِلّا الَّـذِي حَرَّمْتَـهُ فـي المَـأْكَلِ
وَاحْذَرْ وَكُنْ مُسْـتَيْقِظاً ففي الخَفَا عَـدُوُّكَ الشَّـيْطَانُ وَاعِـي الخَتْلِ
لا يَصْنَعَـنَّ حِيلَـةً مَحْبُوكَـةً يُخْرِجُكُمْ مِـنَ النَّعِيمِ المُخْضِلِ

يشير الناظم إلى بُعْدِ المعركة الأزليةِ بين الإنسان وعدوه الشيطان كما عبر عن ذلك القرآن، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ [فاطر:٦]، وأنَّ تطبيقاتِها العمليةَ مع الإنسان بدأت بآدم بعد إسكانه الجنة هو وزوجته حواء، وتحذير المولى من غواية الشيطان، وحذره مولاه من أحابيل الشيطان في أكثر من حدث دائر بين آدم وأبليس.

الدرس الحادي والعشرون

الأكل من الشجرة والإهباط إلى الأرض

وَأَوَّلُ الإِغْواءِ في تَارِيخِنا ... أَكْلُهُمَا بِخِدْعَةِ المُنْتَحِلِ
حَتَّىٰ قَضَىٰ الرَّحْمٰنُ إِخْرَاجَهُما ... مِنْ جَنَّةِ الخُلْدِ لِأَرْضٍ بَدَلِ
وَلَمْ يَزَلْ إِبْلِيسُ يُخْفِي مَكْرَهُ ... لِلْإِحْتِنَاكِ في الذَّرَارِي الأُوَلِ
حَتَّىٰ بَدا قَابِيلُ يَزْهُو فَرَحاً ... بِعَقْلِهِ المَأْسُورِ خَلْفَ الحِيَلِ
مُسْتَتْبِعاً وَساوِساً في نَفْسِهِ ... أَوْحَىٰ بها الشَّيْطانُ قَلْبَ الرَّجُلِ
مُكَوِّناً حِقْداً كذا تَنافُساً ... وَمُشْعِلاً نارَ السُّلُوك الأَرْذَلِ
كَأَنَّهُ «الرِّيمُوتُ» في تَأْثِيرِهِ ... عَلَىٰ مَجَارِي الوَعْيِ بِالتَّحَوْصُلِ
وَفِقْهُ تَبْرِيرٍ دَنِيءٍ صَاغَهُ ... فِي سَيْرِهِ المَشْحُونِ بِالتَّرَذُّلِ

يشير الناظم مرةً أخرى إلى أول مراحل الإغواء للآدمية ، وأنها بدأت بالحيلة على آدم وحواء لإخراجهما من جنة الخلد ؛ لتكون الحيلة إحدى وسائل التلبيس على العقل الآدمي، وكانت نتيجةُ هذه الحيلة الماكرة أَكْلُهُما من الشجرة المحرمة وإهباطُهُما إلى الأرض.

وعلى مبسوط الأرض الجديدة جَدَّدَ الشيطانُ مَكْرَه وخداعَه بأسلوب آخر، حيث احتَنَكَ وَعْيَ قابيلٍ وأثار فيه طبيعة الغيرة والتنافس ، حتى تحول الأمر إلى ظاهرةِ حقدٍ مقيتةٍ ، وَصَفَها الناظم بأنها كالنار تغلي في صدر قابيل، حيث يجري الشيطان من ابن آدم مجرى الدم، وعبَّر الناظم عن هذا التأثير والإيحاء

بشاهدِ معاصرٍ ، وهو التشبه بعمل «الريموت» ، وأن للشيطان أثراً مشابهاً أدى إلى وقوع قابيل في الكذب وتبريره، وهو الفقه السلبي الذي صار فيما بعدُ مدرسةَ السلوك الأنوي في البشرية ، ويطلق عليه في «فقه التحولات» فقه المبررات والمغالطة.

الدرس الثاني والعشرون

بلوغ الصراع بين الأبوية الشرعية

والأنوية الوضعية في الإنسان

وَقَـدْ أَشـارَ الحَـقُّ فـي كِتابِـهِ ... وَاتْـلُ عَلَيْهِـمْ نَبَـأَ ابْنَـيْ مُرْسَـلِ
إِذْ قَرَّبـا قُرْبانَهُـمْ لِرَبِّهِـمْ ... كَيْ يَقْطَعَ الشَّكَّ بِكَشْفِ المُشْكِلِ
فَأَخَـذَتْ نـارُ السَّـمَاءِ عَلَنـاً ... قُرْبـانَ هَابِيـلَ الَّـذِي لَـمْ يُخْذَلِ
وَتَرَكَـتْ قُرْبـانَ قَابِيـلَ لِمَـا ... فـي قَلْبِـهِ مِـنَ الفَسَـادِ المُفْشِـلِ
فَـازْدادَ حِقـداً وَرَأَىٰ فيمـا رَأَىٰ ... قَتْـلَ الأَخِ المَوْسُـوم بِالتَّعَقُّـلِ
وَلَـمْ يَكُـنْ فـي عِلْمِـهِ وَسِـيلَةٌ ... لِلْقَتْـلِ لا يَـدْرِي بِـأَيٍّ مِفْصَـلِ
فَجَـاءَهُ الشَّـيْطَانُ يُبْـدِي رَأْيَـهُ ... مُعَلِّمـاً بِقَتْـلِ طَيْـرِ البُلْبُـلِ
بِـرَضْخِـهِ بِحَجَرٍ في رَأْسِـهِ ... فَعَـرَفَ القَابِيـلُ عَيْـنَ المَقْتَـلِ
وَنَـفَّـذَ المَشْرُوعَ في غَضْبَتِهِ ... لِيُصْبِـحَ القَابِيلُ عُضْـواً مَرْحَلِي
فَكانَ مـا كانَ وَأَبْـدَىٰ نَدَمـاً ... وَحَمَلَ المَقْتُولَ حَمْـلَ المِكْتَلِ
حَتَّـىٰ رَأَىٰ الغُـرَابَ فـي طَرِيقِـهِ ... وَارَىٰ غُرابـاً بِالتُّـرَابِ الأَهْيَـلِ
فَقَـالَ يَـا وَيْلِـي عَجَـزْتُ أَسَـفاً ... مِثْلِيَّـةُ الغُـرَابِ شَـيْخِي مَثَلِـي
فَدَفَـنَ الجُثَّـةَ وَهْـوَ بَائِـسٌ ... مِمّـا جَنَـاهُ فـي أَخِيـهِ الأَفْضَـلِ

وَضَمِـنَ الشَّـيْطَانُ عُضْـواً فاعـلاً يُدِيـرُ مَشْـرُوعَ الفَسَـادِ الأَوَّلِـي
قَتْـلاً وَسَـلْباً وَهُرُوبـاً دَائِمـاً عَـنْ آدَمٍ وَشَـرْعِهِ المُؤَصَّـلِ

يستشهد الناظم بكتاب الله تعالى فيما قرَّره من خبر التاريخ الشرعي ومجريات الخلاف بين الأخوين «هابيل وقابيل» بالآيات التي وردت في سورة المائدة، وتناول الناظمُ الأحداثَ المذكورةَ في الآية بطريق النظم من مثل تقريب القربان بأمر الله وأخذ السماء لقربان هابيل وترك قربان قابيل، وازدياد نار الحقد والحسد في قابيل على أخيه.

وأشار إلى جهل قابيل بأساليب القتل عندما عزم على فعل ذلك، وعلمه الشيطان القتل عملياً بما أشار إليه من رضخ رأس الطائر بالحجر، ففهم قابيل الدرس وقتل أخاه هابيل بذات الوسيلة، وبدأ المشروع الشيطاني في قابيل ينمو ويزداد ليصبح عضواً فاعلاً في مدرسة الشيطان الأنوية، وبلغ مبلغه الممسوخ عندما تعلم دفن أخيه من فعل الغراب فقال: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ [المائدة:٣١] ، فثبتت مشيخة الغراب للعقل الأنوي المفسد.

الدرس الثالث والعشرون

مدرسة قابيل الوضعية وكالة الشيطان

وَنَشَطَ الشَّيْطَانُ في غَرْسِ الأنا ... بِكُفْرِ قَابِيلَ الَّذِي لَمْ يَقْبَلِ
مُكَوِّناً مَدْرَسَةً وَضْعِيَّةً ... قَوَامُهَا الرَّفْضُ بِكُلِّ مُنْزَلِ
أَسَاسُهَا تَجْرِبَةٌ وَحَاجَةٌ ... لِمَطْلَبِ الإِنْسَانِ في التَّحَوُّلِ
إِنْسَانُها الأَوَّلُ قَابِيلُ الشَّقَا ... تَارِيخُهُ المَدْرُوسُ عِنْدَ الدُّوَلِ
فَخُذْ مِثالاً ما يُسَمَّىٰ منهجاً ... يَرْسُمُ تَارِيخَ الوُجُودِ المَرْحَلِي
مَوْضوعُهُ الإِنْسانُ مِنْ حَيْثُ ابْتَدا ... إنْسانُ غَابٍ مُوغِلٍ في الدَّغَلِ
مِنْ أَصْلِ قِرْدٍ مُسْتَوٍ في خَلْقِهِ ... طَوْراً بِطَوْرٍ في الحِوارِ الجَدَلِي
وَهٰذِهِ دَلالَةٌ حَتْمِيَّةٌ ... لِنَسْلِ قَابِيلَ المَقِيتِ البَدَلِ
نَسْلُ قُرُودِ الوَعْيِ وَالأَصْلِ الَّذِي ... أَصَابَهُ المَسْخُ بِفَهْمٍ دَجَلِي

يشير الناظم إلى تطور الأخذ لدى قابيل بالأنوية الإبليسية ، والتي أساسها الكفر ، وهو أقبح المعاصي والذنوب.

ومن قواعد هذه المدرسة الرفض والإباء والتكذيب بكل ما نزل من السماء من تشريع وتقنين، والاستعاضة عنها بالعقل والتجربة والتفاعل مع الواقع، وهذه المبادئ هي أساس تكوين المدرسة المادية المجردة، وإنسانها الأول قابيل ابن آدم ، وهو ما يعرف في كتب التاريخ الحديث (بإنسان الغاب) ، والأصل في التسمية منهج الأنوية القابيلية، ومن ثم بنى علماء المادة عدداً من النظريات لتفسير وجود الإنسان عقلاً لا شرعاً، ومن هذه النظريات نظرية (دارون) ، وقد أخذت في عالم الحداثة مدىً وشهرةً ودراسةً وقبولاً حتى صارت إحدى الرؤى المطروحة علمياً لتفسير ظاهرة الإنسان.

الدرس الرابع والعشرون

بدء الخليقة في الأديان

وَالأَصْلُ في الأَدْيانِ خَلْقُ آدَمِ إِنْسَانَنَا المَوْصُوفِ بِالتَّبَتُّلِ
نَدْرُسُهُ مِنَ النُّصُوصِ أَدَباً جِيلاً بِجِيلٍ في كِتَابٍ مُنْزَلِ
مُؤَيَّداً بِسُنَّةٍ شَرْعِيَّةٍ عَلَىٰ لِسانٍ بَشَرِيٍّ مُرْسَلِ
إِيمانُنا الحَتْمِيُّ عَيْنُ الإِنْتِمَا لِلّٰهِ خَالِقِ الوَرَىٰ المُبَجَّلِ
وَالكَافِرُونَ رَبُّهُمْ إِبْلِيسُهُمْ مَرْجِعِهُمْ قَابِيلُ أَصْلُ المُشْكِلِ
مَصِيرُنا لِجَنَّةٍ قَدْ أُزْلِفَتْ وَهُمْ إِلَىٰ النَّارِ الجَحِيمِ الكَلْكَلِ
إِلّا إِذا تَابوا مِنَ الكُفْرِ الَّذِي رَوَّجَهُ الشَّيْطانُ نَهْجاً جاهِلِي

يشير الناظم ويؤكد أن القراءة الشرعية لظاهرة وجود الإنسان تختلف جذرياً عن التفسير العقلاني الوضعي الأنوي السابق ذكره ، فالأصل في خلق الإنسان الآدمي هو النص القرآني وما جاء في الكتب السماوية الصحيحة، وما ورد أيضاً في سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام حول بدء الخلق والتكوين، فمرجع الإيمان بإنسانية آدم الأول هي الرسالات السماوية، ومرجع الكافرين المادي نظريات علماء المادة وعقلانيتهم المتصلة بسندها إلى الكافر الأول قابيل.

الدرس الخامس والعشرون

مرحلة ما بين آدم إلى نوح عليه السلام

مِـنْ آدَمٍ مَـرَّتْ قُـرُونٌ عَشْـرَةٌ تَدِيـنُ بِالإِسْـلامِ مِنْ حَيْـثُ تُلي
نَبِيُّهَـا المَبْعُـوثُ «شِـيثٌ» بَعْـدَهُ إِدْرِيـسُ مَنْ خَطَّ بِـرَأْسِ الأُنْمُلِ
وَبَــعْــدَهُ نُــوحٌ لَــهُ رِسَــالَــةٌ سِنُونُها أَلْـفٌ بِنَـصِّ المُنْـزَلِ
خَمْسُـونَ مِنْهَـا قَبْـلَ أَنْ يُنْذِرَهُـمْ وَهْـوَ الأَبُ الثَّانِـي مَـعَ التَّحَوُّلِ
مِــنْ آدَمٍ لِـعَـصْـرِهِ مَـرْحَـلَـةٌ أُنْمُوذُجَـانِ فـي البِنَـاءِ الهَيْكَلِي
مَــدْرَسَــةٌ لِـلأَنْـبِـيَـاءِ بِالهُدَىٰ نَصّـاً وَرُوحـاً بِطِـرَازٍ أَمْثَـلِ
وَمِثْلُهـا أُخْـرَىٰ لِقَابِيـلَ الَّـذِي سَـنَّ الصِّـرَاعَ وَالمَقَـالَ الجَدَلِي
حَتَّـىٰ طَغَـىٰ بِفِسْـقِهِ وَجَـوْرِهِ مَـنْ بَعْـدَهُ أَتْبَـاعُ فِكْـرٍ مَرْحَلِـي
وَمـا أَتَـىٰ نُـوحٌ سِـوَىٰ مِـنْ بَعْدِ ما جَـارَ الزَّمـانُ بِالفَسـادِ المُوحِلِ
مَدْرَسَـةُ القَابِيـلِ صَـارَتْ مَنْهَجـاً مُؤَصَّـلاً في العَالَـمِ المُسْـتَرْذَلِ
ولـم يـزل نـوحٌ ينـادي قومـه للنـص لا للعقـل والتقـول
فَلَـمْ يَجِـدْ مِـنْ قَوْمِـهِ مُسْـتَمِعاً إِلّا القَلِيـلَ مِـنْ ذَرَارِي القُبُـلِ
وَضَاقَ صَدْراً مِنْ شُـمُولِ كُفْرِهِمْ مَعَ العِنـادِ وَالتَّحَـدِّي المُخْجِلِ
فَرَمَـقَ السَّـمَاءَ يَوْمـاً بِالدُّعَـا لِرَبِّـهِ مُسْـتَنْجِداً فـي عَجَـلِ
وَقَـالَ رَبِّ لا تَـذَرْ مِـنْ نَسْـلِهِمْ بَيْتـاً ولا داراً وَعَمِّـمْ وَاشْـمَلِ

يضع الناظم هنا مقابلة بين مدرستين تاريخيتين:

الأولى: مدرسة النبوة المبتدئة بآدم ومن تلاه من الأنبياء على مدى عشرة قرون حتى بعثة النبي نوح عليه السلام.

والثانية: مدرسة الأنوية الإبليسية العقلانية الوضعية التي أسسها قابيل في جانب من الأرض على الكفر وعبادة النار واستحلال كل ما حرم الله.

وهذه المدرسة الأنوية واجهها نوح عليه السلام مواجهة طويلة المدى بلغت فيما ذكره القرآن إلى ألف سنة إلا خمسين عاماً، حتى يئس منهم ودعا عليهم فأرسل الله الطوفان فأهلكهم وأغرقهم.

مرحلة الطوفان وآثارها

وَجاءَ أَمْرُ اللّٰهِ في سَاعَتِهِ
بِصُنْعِهِ سَفِينَةً في الجَبَلِ

تَكُونُ أَدواراً لِحَمْلِ أُمَّةٍ
مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ لِحِفْظِ المَثَلِ

وَحَدَّدَ الرَّحْمٰنُ وَعداً قاطِعاً
عَلامَةً لِوَعْدِهِ المُكْتَمِلِ

تَنُّورُهُ إذا طَغَىٰ المَاءُ بِهِ
فَلْيَرْكَبِ الفُلْكَ سَرِيعاً مُعْتَلِي

والقَوْمُ في سَكْرَتِهِمْ لم يُدْرِكوا
حَقِيقَةَ الإِنْذارِ بِالتَّخَيُّلِ

وَالمُزْنُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ هَاطِلٌ
وَالبَحْرُ يَعْلو هائِجاً كَالمِرْجَلِ

فَذَهَبَ القَوْمُ إِلَىٰ حَيْثُ ارْتَأَوْا
أَمانَهَمُ مِنْ جَائِحٍ مُسْتَأْصِلِ

وَمَرَّ نُوحٌ في ذُرَىٰ طوفانِهِمْ
عَلَىٰ ابْنِهِ كَنْعَانَ دَاعٍ فَيْصَلِي

تَعَالَ وَارْكَبْ يا بُنَيَّ دَرْبَنا
لا عَاصِمَ اليَوْمَ سِوَىٰ الرَّبِّ العَلِي

فَرَدَّ كَنْعَانُ الشَّقِيُّ قائِلاً
إِنِّي سَآوي جَبَلاً لا شَأْنَ لي

وَحَالَتِ الأَمْوَاجُ في طُوفانِها
ما بَيْنَ نُوحٍ وَالسَّلِيلِ الأَرْذَلِ

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ هٰذا وَلَدِي
مِنِّي وَمِنْ أَهْلِي دَواماً فَاقْبَلِ

فَقِيلَ هٰذا لا يَمُتُّ صِلَةً
بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ مِنْ عَمَلِ

فَدَعْكَ مِنْ هٰذا ولا تَسْأَلْ فذا
عِلْمٌ خَفِيٌّ قَدْ مَضَىٰ في الأَزَلِ

فَقالَ نُوحٌ رَبِّ فَاغْفِرْ لي عَلَىٰ
جَهْلِي وَسامِحْني وَعَالِجْ عِلَلِي

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءً طَغَا   وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي لا تَهْطِلِي
وَغِيضَ مَاءُ الأَرْضِ في حُدُودِهِ   وَعَادَتِ الأَرْضُ إِلَىٰ التَّشَكُّلِ
وَقِيلَ فَاهْبِطْ بِسَلَامٍ هَانِئٍ   بِجَبَلِ الجُودِي عَلَىٰ تَمَهُّلِ
وَبَرَكَاتٍ مِنْ كَرِيمٍ رَاحِمٍ   عَلَيْكَ تَهْمَىٰ وَعَلَىٰ كُلِّ وَلِي
مِمَّنْ رَقَىٰ سَفِينَةً آمِنَةً   وَمَنْ سَيَأْتِي مِنْ صُنُوفِ القُبُلِ
يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ مِثْلَما   مَسَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالرُّسُلِ

يبسط الناظم في هذا الفصل قصة الطوفان الذي عذب الله به قوم نوح بدءاً من صنعه السفينة بأمر الله على رأس الجبل ، مما زاد سخرية القوم بنوح، ثم تحديد موعد الطوفان بثوران التنور بالماء، وما فعله القوم من الالتجاء إلى المرتفعات والجبال العالية.

وأثبتَ القرآنُ قصةَ نوح مع ابنه كنعان الكافر ، وكيف لاقى مصيرَه المحتوم باتباعه العقل والاختيار الذاتي ، وإبائه ورفضه لدعوة والده بالركوب مع المؤمنين، وما تحركت به عاطفة نوح نحو ولده بقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:٤٥] ، وما جاء من النهي الرباني عن الاستشفاع للكافر ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ [هود:٤٦]، واعتذر نوح لربه، وأمر الحق له بالهبوط على جبل الجودي: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود:٤٨] .

واقتلع الطوفانُ كافةَ الذراري الكافرة في الأرض بعمومها ، ولم يبق غير من كرب السفينة من الإنسان والحيوان، وبذلك يُطلق في التاريخ النبوي الأبوي الشرعي على نوح عليه السلام بأنه (أبو البشرية الثانية).

الدرس السابع والعشرون

ما بعد طوفان نوح عليه السلام

وَجَـدَّدَ اللـهُ الحَيَـاةَ بَعْدَمـا تَنَاسَـلُوا عَلَىٰ المَدَىٰ المُسْتَقْبَلِ
وَغَـرَسَ الشَّـيْطَانُ فِيمَـنْ قَـدْ جَفا وَمَـنْ غَلا مَشْـرُوعَ كُفْـرٍ مُذْهِلِ
وَلَـمْ يَـزَلْ يُغْوِيهِـمُ حَتَّـىٰ رَبَـا شِرْكُ الأَضَالِيلِ المَقِيتِ المُفْشِلِ
وَسَـادَ في الأَطْـرافِ رَدْحاً وَسَـمَا بَيْنَ الشُّـعُوبِ صَادِحـاً بِالزَّجَلِ

يشير الناظم إلى المرحلة البشرية الثانية بعد الطوفان ، وما قام به نوح عليه السلام فيما بقي من عمره من نشر الدعوة إلى التوحيد، وتثبيته في الأبناء والأتباع، ولم يزل كذلك حتى وفاته، وما مر من بعده من أزمان تطاولت حتى أغواهم الشيطان مرة أخرى للأخذ بقانون العقلانية والتجربة والتصورات الوهمية ، فعادوا إلى الشرك والضلال، وأفسدوا في الأرض على ممر العديد من الأجيال.

الدرس الثامن والعشرون

نبي الله هود عليه السلام

وَمَـرَّتِ القُـرُونُ فـي مَسِيرِها
مَذْكُورَةً فـي المُصْحَفِ المُرَتَّلِ
مِـنْ عَصْـرِ نُـوحٍ وَكَـذا مَـنْ بَعْدَهُ
في وَادِي الأَحْقـافِ وَادٍ مُمْحِلِ
مَسِـيرَةٌ مَشْـحُونَةٌ بِـكُلِّ مـا
تَحْمِلُـهُ مِـنَ الصِّـرَاعِ الأَزَلِـي
مَـا بَيْـنَ كُفْـرٍ جَاهِلِـيٍّ مَـارِقٍ
وَبَيْـنَ وَحْـيٍ نَبَـوِيٍّ مُنْـزَلِ
وَالمُؤْمِنُـونَ دَائِمـاً فـي قِلَّـةٍ
وَالكَافِـرُونَ فـي احْتِشَـادٍ مُبْطِلِ
فـي عَصْـرِ هُـودٍ قَوْمُـهُ عَـادٌ بَغَـوْا
وَمَرَقُـوا وَكَذَّبُـوا بِالمُرْسَـلِ
دَعَاهُـمُ بِقَوْلِـهِ وَفِعْلِـهِ
قَالُـوا سَـئِمْنَا مَـا تَقُـولُ فَارْحَلِ
مَـا جِئْتَنَـا بِشَـاهِدٍ يُقْنِعُنَـا
فَـادْعُ الإِلٰـهَ بِالعَـذَابِ المُجْفِـلِ
فَأَرْسَـلَ الرِّيـحَ عَلَيْهِـمْ غَضَبـاً
تَنْسِـفُهُمْ نَسْـفاً بِرِيـحٍ مُرْمِـلِ
حَتَّـىٰ غَـدَوْا جُـذُوعَ نَخْـلٍ تَرْتَمِي
خَاوِيَـةً بَيْـنَ الرُّبَـىٰ وَالجَبَـلِ

يشير الناظم إلى مرحلةٍ تَعَدَّدَت فيها الرسل والأنبياء من بعد عهد الطوفان إلى بعثة سيدنا إبراهيم ، يدعون الناس إلى التوحيد ونبذ الشرك وعبادة الأوثان.

وكان أول الرسل بعد نوح عليه السلام بقرون مديدة سيدنا هود ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس:٧٤].

وطالت معركة الحق والباطل على عهد نبي الله هود حتى جاء أمر الله

بهلاك قومه بالريح السموم، وتحقق أن هلاك الحضارات كان بسبب الكفر والتكذيب للأنبياء، حيث قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾[هود:٦٠].

الدرس التاسع والعشرون

نبي الله صالح عليه السلام

وَصَالِحٌ إِلَىٰ ثَمُودَ لَمْ يَزَلْ يَدْعُوهُمُ لِلْحَقِّ بِالتَّرَسُّلِ
حَتَّىٰ طَغَوْا وَقَتَلُوا نَاقَتَهُ وَاجْتَمَعُوا لِقَتْلِهِ بِالحِيَلِ
فَأَرْسَلَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً لَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ سَاكِناً بِمَنْزِلِ
وَكَمْ قُرُونٍ قَدْ مَضَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ تَتْرَىٰ كَما قَدْ جَاءَ فِي النَّصِّ الجَلِي
مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ مُسْتَغْفَلِ صَارُوا أَحَادِيثَ الزَّمَانِ الأَوَّلِ
نُبُوَّةٌ قَدْ حَمَلَتْ مِشْعَلَها وَفِتْنَةٌ تَعْصِفُ بِالمُعْتَزِلِ
يَا مَنْ تَرَىٰ سَيْرَ القُرُونِ تَنْطَوِي مَا تَرْعَوِي لِفَهْمِ سِرٍّ مُجْتَلِي
مَرَاحِلٌ طَوِيلَةٌ فِي عَدِّهَا لٰكِنَّهَا كَالطَّيْفِ فِي التَّحَوُّلِ

يشير الناظم إلى الأمة اللاحقة بعد قوم عاد ، وهم قوم ثمود الذين بعث الله لهم نبيَّه صالحاً عليه السلام ، وما بذله في سبيل إخراجهم من الوثنية والشرك والضلال إلى حظيرة الإيمان والتوحيد، ولكنّ قومَ صالحٍ كذبوا وقتلوا الناقة وعتَوْا عن أمر ربهم ، فدعا عليهم نبي الله صالح ، فأخذهم الله بالعذاب ، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨].

ووصف الله مسيرةَ التاريخ من بعد هلاك هذه الأمة بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤﴾ [المؤمنون:٤١-٤٤].

الدرس الثلاثون

مرحلة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام

مَـرَّتْ شُـعُوبٌ وَقُـرُونٌ عِـدَّةٌ وَالآدَمِـيُّ الغِـرُّ عَيْـنُ المُشْـكِلِ
غَـزَاهُ إِبْلِيـسُ الطَّرِيـدُ مُفْسِـداً فِـطْـرَتَـهُ بِـنَـاعِـقِ الـتَّـرَذُّلِ
فَـكانَ صَـوْتُ الأَنْبِيَـاءِ مُنْقِـذاً لِلْمُؤْمِنِيـنَ بِالنِّـدَاءِ الأَمْثَـلِ
فَالمُسْـتَجِيبُ قَدْ نَجا عَلَىٰ المَدَىٰ وَمَـنْ يُكَـذِّبْ مَـا لَـهُ مِـنْ مَوْئِلِ
مَرْحَلَـةٌ تَمْتَـدُّ مِـنْ عَهْـدٍ مَضَـىٰ مَـرَّتْ بمـا فيهـا مِـنَ التَّطـاوُلِ
وَكَـمْ بهـا وَكَـمْ لهـا مِـنْ خَبَـرٍ في عَالَـمِ الرَّحْمٰـنِ غَيْـرَ مُهْمَلِ
منهـا أَتانـا قِصَـصٌ لِبَعْضِهـا وَبَعْضُهـا أَخْبَارُهـا لَـمْ تَنْجَلـي
مِـنْ عَهْـدِ إِبْراهِيـمَ يَدْعُـو قَوْمَـهُ لِلدِّيـنِ فـي مَفْهُومِـهِ المُؤَصَّـلِ
مُحَارِبـاً تَأْلِيـهَ عَقْـلٍ وَهَـوىً وَفِـتْـنَـةً بِـوَثَـنٍ أَوْ هَيْكَلِ
أَوْ سُـوءِ فَهْـمٍ فـي اتِّخَـاذِ الأَوْلِيَـا وَعُقْـدَةِ الأَصْنَـامِ بِالتَّسَلْسُـلِ
جَهْـلٌ رَبَـا فـي وَاقِـعٍ مُسْـتَكْبِرٍ نَمَـا بِـهِ تَظَافُـرُ الكُفْـرِ الجَلِـي
عَادَاتُهُـمْ مِـنْ بَيْـنِ جَهْـلٍ مُطْبِـقٍ أَوْ بَيْنَ أَوْثـانٍ عَلَتْ في المَحْفَلِ
فَقَـامَ إِبْرَاهِيـمُ يَحْـدُو صَابِـراً مَرَاحِـلاً عَانـىٰ الإِبـاءَ الجَاهِلِي
إِنْ شِـئْتَ تَدْرِي شَـأْنَها فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا فـي كِتَـابِ اللّٰـهِ مِـنْ مُفَصَّلِ
عَـنْ آزَرٍ وَكُفْـرِهِ ومـا تَـلا مِنْ كَسْـرِ أَصْنامٍ لَهُـمْ بِالمِنْجَلِ

وَحِرْصِهِـمْ عَلَـىٰ اتِّخَـاذِ حُجَّـةٍ عَلَـىٰ الخَلِيلِ بِالحِـوَارِ الجَدَلِي
فَحَاجَّهُـمْ وَلَـمْ يَـزَلْ يُخرِسُـهُمْ حَتَّـىٰ قَضَوْا بِحَرْقِهِ فـي جَحْفَلِ
وَقَـيَّـدُوهُ وَرَمَـوْهُ صَلَفاً في نَارِهِمْ فَلَمْ تُصِبْ مِنْ مِفْصَلِ
وَهَالَهُـمْ مَـا شاهَدُوا مِـنْ حِفْظِهِ وَصَوْنِـهِ مِـنْ لَهَـبٍ مُسْـتَفْحِلِ
وَاسْتَشْـعَرُوا مِمَّـا رَأَوْا نَجَاحَـهُ مَـعَ اقْتِنَـاعِ النَّـاسِ بِالتَّحَـوُّلِ
فَحَاجَّـهُ النَّمْـرُودُ وَهْـوَ بَيْنَهُـمْ مُسْتَشْـعِراً حُجَّتَـهُ فـي المِقْـوَلِ
فَـرَدَّ إِبْـرَاهِـيـمُ رَدًّا مُقْنِعاً وَقَـالَ رَبِّـي مَـا لَـهُ مِـنْ مَثَلِ
يَأْتِـي لَنَـا بِالشَّـمْسِ مِـنْ مَشْـرِقِها فَـأْتِ بِهـا مِـنْ مَغْـرِبٍ لِتَنْجَلِي
فَبُهِـتَ النَّمْـرُودُ مِـنْ بُرْهَانِـهِ وَقَـالَ هٰـذا سَـاحِرٌ لا شَـأْنَ لـي

يشير الناظم إلى ما أتت به الآيات الكريمات بعد مرحلة قوم ثمود لتقرر لنا التوثيق الرباني عن مرحلة إبراهيم وبأكثر من مشهد وكيفية، حيث تنوعت آيات القران في عرض مواقف إبراهيم عرضاً توثيقياً منذ بداية حياته الروحية الفطرية مع قومه وأبيه آزر ، وما هيأ الله له من مشهد التفكر في جهتين:

الأولى: جهة القوم الذي يعبدون الأصنام، واقتناعه الفطري بفساد هذه العبادة.

الثانية: جهة التفكر في المبسوط الكوني للتأمل والاستنتاج البديهي لما وراء الوجود من القوة الإلهية ، متأملاً في الكوكب ثم إلى القمر ثم إلى الشمس باعتبارها أعظم الظواهر في رأي العين.

وكان التأمل إلهاماً من الله له، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[الأنعام:٧٥]، فاستدرك بالإلهام والتأمل حقيقة الخالق فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

﴿حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

وبدأت معركة المحاجحة بين إبراهيم وقومه ، بدءاً بموقفه من أبيه آزر أو عمه على الأرجح، ثم قصته مع الأصنام وتكسيرها واحتجاجه على الفعل بنسبته إلى كبير أصنامهم ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء:٦٣-٦٥]، وكانت النتيجة جمع الحطب، ورمي إبراهيم في النار وحصول المعجزة الكبرى ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[الأنبياء:٦٩]، ثم ما جرى من المحاجحة بين إبراهيم والنمرود عند المقابلة بينهما وتعبير القرآن عن ذلك بقول الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة:٢٥٨] .

وهذه تقريراتٌ شرعيةٌ يطرقها القرآن لإثبات تاريخ التوحيد والحنيفية السمحة أمام طغيان العقل البشري الأنوي، وكانت مرحلةُ نبوة إبراهيم مرحلةً مفصليةً في تاريخ الأبويةِ المِلِّيَّةِ الشرعيةِ العالميةِ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾[الحج:٧٨] ، وفيها عاصر إبراهيم جملة من الوقائع الهامة في تشييد الحنيفية العالمية.

الدرس الواحد والثلاثون

الانتقال من العراق إلى الشام وإيمان لوط عليه السلام

وَاضْطُرَّ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَهْجُرَهُمْ ... مُرْتَحِلاً لِلشَّامِ تَحْتَ الوَجَلِ
بِهَا أَقَامَ الدِّينَ أَحْيَىٰ نَهْجَهُ ... مُؤَسِّساً قَوَاعِدَ المُسْتَقْبَلِ
وَكَانَ لُوطٌ تَابِعاً وَمُؤْمِناً ... بِمَنْهَجِ الخَلِيلِ زَاكِي العَمَلِ
وَقَالَ رَبِّ إِنَّنِي مُهَاجِرٌ ... إِلَيْكَ فَاقْبَلْ هِجْرَتِي وَجَمِّلِ
وَصَارَ مَبْعُوثاً بِأَمْرِ رَبِّهِ ... لِأُمَّةٍ بَاءَتْ بِسُوءِ العِلَلِ
أَصَابَهُمْ دَاءُ الشُّذُوذِ فَغَدَوْا ... يَأْتُونَ في الإِعْلَانِ جِنْسَ الرَّجُلِ
فَقَامَ لُوطٌ مُنْذِراً مُحَذِّراً ... فَمَا اسْتَجَابُوا بَلْ سَعَوْا لِلْأَرْذَلِ
وَنَازَعُوا لُوطاً عَلَىٰ ضُيُوفِهِ ... فَجَاءَ أَمْرُ اللّٰهِ بِالتَّرَحُّلِ
وَقَالَ فَاسْرِ عَنْهُمُ وَذَرْهُمُ ... فما لَهُمْ غَيْرَ الهَلَاكِ العَجِلِ
وَأُمْطِرُوا حِجَارَةً في صُبْحِهِمْ ... مِنْ نَارِ سِجِّيلٍ شَدِيدِ المَقْتَلِ

يشير الناظم إلى تعدد رحلات سيدنا إبراهيم من موطن إلى موطن ، حيث كان بالشام ثم مصر والعراق ثم مكة المكرمة، والعود إلى الشام ، وفي كل رحلة تاريخ وحوادث وقواعد توحيد وديانة، ومن أهمها انتقال هاجر وإسماعيل إلى ما عبر عنه الحق على لسان إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾

[إبراهيم:٣٧].

أما لوط عليه السلام فقد آمن بإبراهيم كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]، وكان عمره ١٧٥ عاماً تقريباً توثق فيها عالمياً بالنص الشرعي فساد قومه وارتكابهم الفاحشة: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف:٨١] ، وأدانت النبوةُ الشذوذَ الجنسيَّ في فاعليه، وجرى فيهم أمر الله بالعذاب المنصوص عليه: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٧٣-١٧٤] ، وفي آية أخرى ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت:٣٤] ، وأثبت الحقُّ تركَ هذه القرية مثالاً للانحرافِ الخُلُقِيِّ بقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥].

الدرس الثاني الثلاثون

إسماعيل وهاجر في مكة وبناء الكعبة

وَلَـمْ يَـزَلْ خَلِيـلُ رَبِّـي دَاعِيـاً | مُعَلِّمـاً وَمُرْشِـداً لِلْمُقْبِـلِ
وَقَـالَ يَـا مَـوْلَايَ قَـدْ وَهَبْتَنِـي | بِرَغْـمِ سِنِّي صِبْيَـةً تُنْسَـبُ لـي
وَجَـاءَهُ الأَمْـرُ رَحِيـلاً لَازِمـاً | بِهَاجَـرٍ وَنَجْلِهَـا لِلْمَوْئِـلِ
لِمَكَّـةٍ يَغْـرِسُ فيهـا مَغْرِسـاً | عَلَـىٰ المَـدَىٰ يَأْتِـي بِأَمْـرٍ جَلَـلِ
وَقَـالَ رَبِّ إِنَّنِـي أَسْـكَنْتُهُمْ | فـي غَيْـرِ أَرْضِ الـزَّرْعِ وَالتَّمَوُّلِ
سَـخِّرْ لَهُـمْ أَفْئِـدَةً تَهْـوِي إِلَـىٰ | مَقَامِهِـمْ وَارْزُقْهُـمُ رِزْقـاً مَلِـي
وَ«هَاجَـرٌ» خَافَـتْ عَلَـىٰ وَلِيدِهَـا | فَذَهَبَـتْ تَسْـعَىٰ بِسَـفْحِ الجَبَـلِ
تَسْـتَنْصِتُ الرِّيـحَ لِتَلْقَـىٰ خَبَـراً | يَدُلُّهـا عَلَـىٰ مَـكَانِ المَنْهَـلِ
فَلَـمْ تَكَـدْ تَنْظُـرُ رِجْـلَ إِبْنِهـا | حَتَّـىٰ رَأَتْ مَاءً عَلَـىٰ المُحْتَمَلِ
يَـفُـورُ تَـحْـتَ قَـدَمٍ مُـبَـارَكٍ | فَأَخَـذَتْ تَزُمُّـهُ بِالعَجَـلِ
تَقُـولُ زُمْ زُمْ وَاجْتَمِـعْ تَحْتِـي هنـا | مَـاءً مَعِينـاً جَـاءَ مِـنْ رَبٍّ عَلِـي
وَاجْتَمَـعَ النَّـاسُ عَلَـىٰ مَعِينِهـا | وَخَيَّمَـتْ قَبَائِـلٌ فـي المَنْـزِلِ
وَجَـاءَ إِبْرَاهِيـمُ نَحْـوَ مَكَّـةٍ | مُسْـتَعْجِلاً يَقُـولُ لِلإِبْـنِ الوَلِـي
إِنِّـي أَرَىٰ ذَبْحَكَ فـي نَوْمي جَرَىٰ | فَمـا تَـرَىٰ فيمـا رَأَيْـتُ وَافْصِلِ
فَقَـالَ فَافْعَـلْ مَـا أُمِرْتَ إِنَّنِـي | لِأَمْـرِ رَبِّـي صَابِـرٌ يَطِيـبُ لـي
فَتَلَّـهُ عَلَـىٰ الجَبِيـنِ فـي مِنًـى | طَوْعـاً لِأَمْـرِ رَبِّنَـا المُبَجَّـلِ
وَاسْـتَعْصَمَ السِّـكِّينُ أَنْ يَذْبَحَـهُ | وَجَـاءَ جِبْرِيـلُ بِكَبْـشٍ أَذْيَـلِ

وَعَـادَ إِبْرَاهِيـمُ مَـرَّاتٍ إِلَـىٰ
خِيَـام إِسْـمَاعِيلَ خَيْـرِ مَأْمَـلِ

حَـتَّـىٰ أَتَـاهُ مَـرَّةً يَـطْـلُـبُـهُ
مُسَـاعِداً وَضْعَ الأَسَـاسِ الأَوَّلِ

قَوَاعِـدُ البَيْـتِ لِيُعْلِـي رُكْنَـهُ
حَتَّـىٰ أَتَـمَّ الأَمْـرَ بِالتَّمَهُّـلِ

وَجَـاءَ جِبْرِيـلُ وَقَـالَ بَلِّغَـنْ
فـي كُلِّ فَـجٍّ حَـجَّ بَيْـتٍ مُكْمَلِ

نَـادِ فَنَـادَىٰ فـي الجِهَـاتِ كُلِّهـا
لَبَّيْكَ هٰـذا مَطْلَبُ الـرَّبِّ العَلِي

وَقَـالَ وَابْعَـثْ يـا إِلٰهِـي فِيهِـمُ
رَسُـولَ صِـدْقٍ صَانِـعٍ لِلْأَمَـلِ

يَتْلُـو عَلَيْهِـمْ وَيُزَكِّيهِـمْ عَلَـىٰ
عِلْمِ الكِتَابِ وَالحَدِيثِ الأَفْضَلِ

وَكَـمْ لِإِبْرَاهِيـمَ فَضْـلٍ وَدُعَـا
وَكَـمْ لَـهُ خَصَائِـصٍ لَـمْ تُجْمَلِ

وَكَـمْ لَـهُ مِـنْ كَـرَمٍ لِضَيْفِـهِ
كَمَـا أَتَىٰ فـي نَصِّ رَبِّـي المُنْزَلِ

يشير الناظم في ثنايا الأبيات إلى مفاصلَ هامَّةٍ من حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومنها استمرارُه في نشر الدعوة الحنيفية حتى أتاه أمر الله بالرحيل مع هاجر وابنها إسماعيل إلى أرض مكة.

ولما أن بلغ بهم إلى هناك حتى ولّى وتركهم ، تاركاً لهم قِربةَ ماءٍ ومِكْتَلاً فيه شيءٌ من تمر، وتبعته هاجر تناشده السبب في تركها وحيدة مع ابنها في هذه الأرض القفر فلم يجبها ، حتى سألته: آللهُ أَمَرَكَ بهذا؟ فقال: نعم، وولى في طريقه نحو الشام ، وعادت هاجر إلى ولدها حتى إذا ما غاب خلف الكثبان التفت إبراهيم نحو مكة وقال ما جاءت به الآيات الكريمة حكايةً عنه من سورة إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]، وبقيت هاجر في ذلك المكان المبارك حتى نفد الماء وقل الزاد، فأخذت تبحث وتفتش عن أثر لماء أو مسافر أو عابر سبيل، وترددت سبع مرات بين جبل الصفا وجبل المروة تستنصت الريح لعلها أن تسمع حساً، ولكنها لم تر ولم تسمع شيئاً .

وأثناء عودتها إلى ولدها سمعت حسّاً لصوت فأنصتت فرأت الماء ينبع من تحت قدم ولدها إسماعيل ، فهرعت نحو الماء تجمعه وتحوضه وتقول: زم زم ، أي: اجْتَمِعْ ، حتى اجتَمَعَ الماءُ وسَرَتْ بكرامة الله تعالى لها ولابنها.

واجتمع نفر من أهل اليمن من قبيلة جُرْهُم وأتوا في طريقهم على أثر الماء، ومكث العديد منهم في تلك الناحية ، ورحبت بهم هاجر وأعطتهم من الماء ما يكفيهم وجعلت وصاية الماء وسقايته لها ولابنها.

وترعرع إسماعيل في هذا الموطن حتى صار غلاماً يعتمد على نفسه ويساعد أمه في تحصيل أمور حياتهم ، فجاءه إبراهيم ولقيه مع أمه ثم انفرد به قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فما كان منه إلا أن قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]، وقد أشارت كتب التفسير والحديث لهذه القصة بما يفيد وخاصة في شأن ذهاب إبراهيم وإسماعيل لجمع الحطب كي لا تقلق أمه هاجر ، واعترض الشيطان على إبراهيم ورد عليه بالرجم ثلاث مرات، ومحاولة إبراهيم ذبح إسماعيل وامتناع السكين عن القطع حتى بعد أن رده على قفاه معتقداً أن رأفة الأب تحجب القدرة على تنفيذ الأمر، وأثناء ذلك جاء جبريل بكبش الفداء: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات:١٠٧].

ورحل إبراهيم عن مكة تاركا زوجته وابنها إسماعيل عدة سنوات حتى كبر إسماعيل وتزوج الزوجة الأولى بعد وفاة أمه هاجر ، وجاء إبراهيم يتفقد حال ولده فلم يجده ووجد زوجته فسألها عن حالهم ، فشكت إليه سوء الحال وضعف المعيشة ، فقال لها : أبلغي إسماعيل السلام وقولي له: «غَيِّرْ عَتَبَةَ دارك» ، ولما جاء إسماعيل وقد ذهب والده سألها فأخبرته الخبر فقال لها : أنتِ العَتَبَةُ.. اِلْحَقِي بأهلِك.

ثم تزوج أخرى ومكثتْ معه ما شاء الله وجاء إبراهيم في وقت لم يكن فيه إسماعيل موجوداً وخرج في رحلة صيد بالجوار ، فسأل إبراهيم الزوجة عن

حالهم فحَمِدَتِ اللهَ وأثنت عليه خيراً وقالت: طعامنا اللحم والماء ، فدعا لهم بالبركة وقال لها: أَبْلِغِي إسماعيل السلام وقولي له: «ثَبِّتْ عَتبَةَ بيتِك» ورحل عنها إلى الشام، ولما عاد إسماعيل سأل عن الأمر فأخبرته بما قال فقال : أنتِ العَتبَةُ.. أَمَرَني أن أُمْسِكَكِ في عَقْدِي.

وجاء إبراهيم مرة أخرى ليجد إسماعيل قد كبر وصار قادراً على تتابع العمل ومعاناته، فأوكل إليه مساعدته في بناء قواعد الكعبة المشرفة ولم يشترك معهم فيها أحد ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٨].

ومـا أن فرغ إبراهيمُ من بنـاء الكعبة على قواعدها حتى أتاه جبريل يأمره أن يناديَ في الناس بالحج ، وأمره أن يصعدَ على جبل أبي قبيس وينادي بشعيرة النداء الشرعي للحج: «**لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**» ، وكررها في الجهات الأربع ليصل نداؤه إلى أصلاب الرجال وأرحام الأمهات.

ودعا إبراهيم بدعوات مباركة كان فيها قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**أنا دعوةُ إبراهيم وبشارة عيسى**» ، وبدأت ملة إبراهيم الحنيفية منذ تلك اللحظة الزمنية المباركة تؤتي أُكُلَها بإذن ربها ، حتى جاءت مرحلة نبوة إسماعيل عليه السلام.

الدرس الثالث والثلاثون

نبوة إسماعيل عليه السلام

مِـنْ بَعْـدِهِ اسْـمَاعِيلُ كَانَ صَادِقـاً فِـي وَعْـدِهِ مُرَبِّيـاً لِمَـنْ يَلِـي
يَأْمُرُهُـمْ بِـكُلِّ مـا يُصْلِحُهُـمْ مِنَ الصّـلاةِ وَالزّكاةِ فـي الحُلِي

يشير الناظم إلى ظهور نبوة إسماعيل بعد أبيه إبراهيم كما وصف ذلك القرآن بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم:٥٥]، ولنبوة وأبوة إسماعيل عليه السلام في التوثيق التاريخي للأمة العربية مكانٌ غير مجهول، وهو أصل سلسلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جهة إبراهيم عليه السلام، وهو النسب المجمع عليه عند أهل السير والتواريخ، ولا يختلف فيها اثنان، وخاصة أنها وردت نصاً من لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا المضمار تترافق الدراسة التاريخية الشرعية لتسلسل الأبوية الملية مع تسلسل الدراسة التاريخية الشرعية للنسبة السلالية ، مما يجمع في دائرة التوثيق الإسلامي سلامة التسلسل الديني وسلامة التسلسل الطيني.

الدرس الرابع والثلاثون

نبوة إسحاق عليه السلام

وبَعْدَهُ إِسْحَاقُ خَيْرُ نَاسِكٍ مَبْعُوثُ مولانا العَلِيِّ الأَبْجَلِي

يشير الناظم إلى مرحلة نبوة إسحاق عليه السلام وهو أخو إسماعيل ، وورد ذكرهما في الآيات معاً في مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم:٣٩].

كما ذكر إسحاق في بعض الآيات مقروناً بنبوة يعقوب من بعده كدليل على شرف الارتباط الديني بالارتباط السلالي قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم:٤٩]، وفي قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٣].

وجاء إسحاق من سارة عليها السلام في قصة ذكرها القرآن في آياته: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣]، وعاش نبي الله إسحاق ١٨٠ عاما، وقيل: ١٧٨ عاما.

الدرس الخامس والثلاثون

نبوة يعقوب عليه السلام

وَجاءَ يَعْقُوبُ النَّبِيُّ المُجْتَبَى مِنْ بَعْدِهِ في العُمْرِ باكي المُقَلِ
مَدْرَسَةٌ في الصَّبْرِ فَاقَتْ وَصْفَها وَكَمْ بها مِنْ عِبْرَةٍ لِمَنْ بُلِي

يشير الناظم إلى مرحلة يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، وهو النبي الصابر المحتسب لله تعالى ، سواء في شأن تبليغه دعوة مولاه، أو صبره المتفرد بما الله به ابتلاه، وقصته مع ولده يوسف وإخوته مشهورة، وفي كتاب الله مذكورة، وهي القصة التي حملتها آيات تلك السورة التي سميت في القرآن باسم يوسف عليه السلام.

وقد امتن الله تعالى على سيدنا إبراهيم بولديه إسحاق وابنه يعقوب وذكرهما في آية واحدة من قوله في سورة مريم: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم:٥٠]، وورد اسم يعقوب في القرآن ١٦ مرة، كما ورد تسلسل النبوة في هذا العقب من إبراهيم حتى يعقوب في آية واحدة من سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران:٨٤]، ومن سورة النساء: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء:١٦٣].

وليعقوب عدة زوجات منهن راحيل بنت لابان ، وهي ابنة خال يعقوب كما أنها أم يوسف وبنيامين عليهما السلام ، وكان له اثنا عشر ولدا، وعاش يعقوب ١٨٠ سنة ودفن ببلد الخليل بفلسطين.

الدرس السادس والثلاثون

نبوة يوسف الصديق عليه السلام

ويُوسُفُ الصِّدِّيقُ في إِخْوَتِهِ   دَرْسٌ عَظِيمٌ ما لَهُ مِنْ مَثَلِ
وَكَانَ في مِصْرَ عَزِيزاً حاكماً   ذُو حِكْمَةٍ حَلَّتْ شَدِيدَ المُشْكِلِ

يشير الناظم إلى نبوة سيدنا يوسف عليه السلام وقصته الشهيرة مع إخوته ووالده يعقوب، وتأتي نبوة يوسف عليه السلام مثالاً متفرداً وأنموذجاً تاريخياً لا مثيل له منذ باكورة حياته حتى مماته، وهو النبي المرسل بين إخوته الأحد عشر نبياً، وكانت بَعْثَتُهُ لأهل مصر كما جاء في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤].

وعاش يوسف ١١٠ سنوات، ومن تفردات نبوته امتلاكه حكم مصر عن طريق إثبات قدراته ومَلَكَاتِهِ المعرفية التي عبر عنها بقوله: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] خلافاً لأنبياء بني إسرائيل الذين يرثون الحكم والنبوة عن آبائهم.

ومن خصائص قصة يوسف عليه السلام أنها جاءت في سورة كاملة من كتاب الله تعالى ، حملت صفة التوثيق الشرعي لتاريخ مرحلته وأسرته، وخُتمت السورة بتأكيد أهمية القصة وتوثيقها في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]، كما بدأت السورة بعرض أهمية القصة القرآنية بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

الدرس السابع والثلاثون

نبوة شعيب عليه السلام

وَبَعْدَهُ شُعَيْبُ طالَ عُمْرُهُ رَدْحاً طَوِيلاً في البِلادِ المُخْضِلِ
مَا بَيْنَ قَوْمٍ خَفَّفُوا مِكْيَالَهُمْ وَأَكْثَرُوا مِنَ الفَسادِ المُخْجِلِ
وَأُهْلِكُوا بِصَيْحَةٍ كَوْنِيَّةٍ ورَجْفَةٍ مِنْ بَيْنِ عَالِي الظُّلَلِ

يشير الناظم إلى نبوة سيدنا شعيب عليه السلام وهي مرحلة طويلة لم تحدد لدى المؤرخين بضابط زمني مؤكد، وكانت رسالته في حاضرة مدين بأرض الشام ، وكانت بلدهم بلد خصب وسعة ، وقد تطاول عليهم زمن الكفر والظلم الاجتماعي، وتميز أولئك بالفساد الاقتصادي وسوء المعاملة في البيع والشراء، ومن أشمل الآيات القرآنية تناولاً لهذه المرحلة ما ورد في سورة (هود والأعراف) ، ففي سورة هود قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

[هود:٨٤-٨٨].

وأشار شعيب إلى التحولات التاريخية السابقة المتتالية بقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود:٨٩]، وتوالى الحوار في الآيات بين نبي الله وقومه على مدى زمني طويل حتى أيس شعيب منهم، فعبر الحق عن ساعة الصفر بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

وفي سورة الأعراف إشارات إلى طول مجادلته لقومه حتى اتفق أمر كبراءهم على تهديده بالخروج من القرية، أو اتباع ملتهم الكافرة، وعندها بلغ الأمر منتهاه عند نبي الله شعيب ، فخاطب ربه بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩] ، وفي سورة الشعراء وصف العذاب بقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٠] ، والإشارة في الآية تدل على أن ذكرَ العذاب وسردَ خبره علامةٌ وعظةٌ وعبرةٌ للأجيال المتلاحقة، وتأكيدٌ بدمار الحضارات الإنسانية الكافرة بالأخذ والعذاب، وهذا هو التاريخ المعبِّر عن حقيقة المصير لتلك الشعوب المستكبرة المتمردة، وقد مر على نبي الله شعيب بعد هلاك قومه زمنٌ أظهر الله فيه نبيَّه (أيوب) و(ذا الكفل) في جانب آخر من الأرض المبسوطة حتى ظهور سيدنا موسى عليه السلام.

الدرس الثامن والثلاثون

نبوة أيوب عليه السلام

وَبَعْدَهُ أَيُّوبُ خَيْرُ صَابِرٍ قَدْ عَاشَ فِي ضُرٍّ شَدِيدٍ مُعْضِلِ
أَجْرَىٰ لَهُ مَوْلَاهُ تَحْتَ رِجْلِهِ بِالرَّكْضِ مَاءً شَافِياً لِلْعِلَلِ
لَمَّا دَعَا مَوْلَاهُ خَيْرَ رَاحِمٍ أَعْطَاهُ أَسْبَابَ الرَّجَاءِ الأَشْمَلِ

يشير الناظم إلى مرحلة أيوب عليه السلام والذي عاش ٥٢عاما فقط على ما أشارت إليه مصادر التفسير ، وحياته نمط فريد في حياة الأنبياء، إذ تميَّز بصبره على الابتلاء ، وطال عليه العهد بالعلل فاستجار بربه ليكشف عنه ضره ، فاستجاب الله له ورفع عنه ضره في لحظة عجيبة المشهد عميقة المعنى وصفها الله بقوله: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٤] ، وفي سورة صٓ وصفٌ لكشف الضر بتفصيل أشمل ، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤].

ودلالات الآيات في التحول ما أجراه الله من أسباب العافية من الماء الذي تحت قدمه ، حيث أمره بتحريك رجله على صفة الركض لينبجس الماء الرقراق الموصوف بالمغتسَل البارد ، وفي ختام الآيتين عبرةٌ وذكرى لنموذجين من الخلق على مدى تاريخ التحولات البشرية الأولى:

﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء:٨٤]، والثانية: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٤٣].

ومن عجيب ما رأيتُ في إقليم ظفار في سلطنة عمان وادٍ تحت مشارف جبل شامخ يسمى (جبل النبي أيوب) ، وفي أعلاه مساحة واسعة عُمرت إعماراً حديثاً بالحدائق والمباني، وفي جانب منها (ضريح النبي أيوب) ، وهو قبر طويل الامتداد لأكثر من ثلاثة أمتار تحت مقصورة مشيدة تشييداً حديثاً ، وعلى القبر لباس أخضر ومتَّجَهُهُ نحو بيت المقدس ، كما أن بجانبه مصلّىً مكشوفٌ على صفة هيئته القديمة كانت قبلته إلى بيت المقدس أيضا؛ ولكنها سُدت أخيرا ووضعت قبلة باتجاه الكعبة تحرجاً من صلاة العوام إلى بيت المقدس.

ولما نزلنا بطن الوادي وشاهدنا جلال المكان وتجاويف الكهوف ونبع الماء ـ حيث يقال : إنها العين التي أشارت إليها الآية ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص:٤٢] ـ شعرنا بشيء من الهدوء والاطمئنان النفسي في ذلك المكان، وليس ببعيد أن تكون نسبةُ الجبل وواديه للنبي أيوب، ولكن الأمر يظل احتمالاً وليس على سبيل القطع والتأكيد.

الدرس التاسع والثلاثون

نبوة ذي الكفل عليه السلام

وَبَعْدَهُ ذُو الكِفْلِ جَاءَ عادِلاً — فـي قَوْمِهِ وَنَاسِكاً في السُّبُلِ
دَعْوَتُهُ كَانَتْ عَلَىٰ مَا ذَكَرُوا — في حَاضِرِ الهندِ وبعضِ الدُّوَلِ
واستأنسَ البَعْضُ بِأَنَّ نَهجَهُ — قَدْ صَارَ فِيما بَعْدُ عَيْنَ الجَدَلِ
أَتْبَاعُهُ قَدْ حَرَّفُوا دِينَ الهُدَىٰ — وَنَسَبُوا الدِّينَ لِبُوذَا الكَابُلِي
وَلَمْ يَزَلْ إِشْكَالُ هٰذا قَائِماً — هَلْ كَانَ بُوذا في عِدَادِ الرُّسُلِ
كَمَثَلِ اليَهُودِ لَمَّا حَرَّفُوا — مَعَ النَّصَارَىٰ دِينَهُمْ بِالعِلَلِ
وَالكُلُّ يُرْجَىٰ أَنْ يُعَادَ أَمْرُهُ — لِلدِّينِ لا لِلْكُفْرِ وَالتَّرَذُّلِ
فَالحَقُّ أَدْعَىٰ أَنْ يَكُونَ قائِداً — والإِفْكُ وَالتَّوْلِيفُ شَرَّ مَقْتَلِ
عَلَىٰ مَدَىٰ التَّارِيخِ وَالبَعْضُ يَرَىٰ — سَلَامَةَ المُعْتَقَدِ المُحَوَّلِ
حَتَّىٰ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ بِمَا — قَدْ فَعَلُوهُ مِنْ صُنُوفِ الحِيَلِ

يشير الناظم إلى مرحلة النبي ذي الكفل ـ على بعض الأقوال هو ابن أيوب عليهما السلام ـ سمي بذلك لأنه تكفل أن يقضي لبني إسرائيل أمرهم وإقامة العدل بينهم.

وقد اعتقد بعض الباحثين أن ذا الكفل هو ما يعرف لدى بعض البلاد الهندية (ببوذا)، وأن بوذا المقدس هو النبي ذو الكفل، فهناك بعض الدراسات التي تناولت هذه المسألة ـ ومنها كتاب (البوذية وتأثيرها على آسيا) دراسات

أسيوية رقم ٨جامعة القاهرة مركز الدراسات الأسيوية يونيو ١٩٦٩م ـ الذي يقول: بوذا ليس إلهاً قديراً ، وهذا الوصف يعني : بوذا ليس إلهاً ، بل هو حرفياً : (تجلي الشخص ذي اليقظة الكاملة من أجل أن يتمكن من مساعدة الآخرين لأقصى درجة).

فبوذا قضى سنوات عديدة في التأمل باحثا عن سبيل النجاة من المعاناة والحصول على السعادة الدائمة لجميع الكائنات ، ونتيجة لشفقته البالغة للآخرين ولفهمه العميق تمكن من التغلب على جميع عيوبه وقصوره ومشاكله والتمكن من تحقيق أقصى إمكانياته حتى إنه أصبح (بوذا).

وكتب السيد حامد عبدالقادر وهو من باحثي منتصف القرن العشرين في كتابه «بوذا الأكبر حياته وفلسفته» : أن النبي ذا الكفل ـ أي : المنتسب إلى كفل المذكور مرتين في القرآن في سورة الأنبياء الآية ٨٥، وسورة ص الآية ٨٤ من زمرة الصابرين والأخيار يشير إلى شاكياموني بوذا ، في حين أن جمهور العلماء يرون ذا الكفل هو النبي (حزقيال). ويوضح الباحث عبد القادر أن كفل تعريب لكلمة (كابيلا) المختصر عن (كابيلا واستو) ، كما يقترح أيضاً أن شجرة التين المذكورة في سورة التين الآيات من ١ ـ ٥ هي إشارة إلى بوذا، لأن بوذا حقق الاستنارة تحت (شجرة التين) ، وبعض العلماء يوافق على هذا الرأي كما ذكر أن البيروني وهو عالم فارسي مسلم من التاريخ الهندي في القرن الحادي عشر ذكر بوذا من الأنبياء ، بينما يرفض بعضهم هذه الشهادة ويقولون: إن البيروني كان يصف حال الناس في الهند الذين كانوا يعتبرون بوذا نبيا. انتهى.

ومما ينبغي التنبه له أن (ذا الكفل) الذي ذكره القرآن هو غير (الكفل) الذي ذكر في الحديث الشريف من قوله صلى الله عليه وآله وسلم كما رواه أحمد عن ابن عمر: كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينار على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من

امرأته ارتعدت وبكت ، فقال لها : ما يبكيكِ.. أَأَكْرَهْتُكِ ؟ قالت: لا ولكن هذا عملٌ لم أعمله قطُّ وإنما حَمَلَتْنِي عليه الحاجة ؟ قال: فتفعلينَ هذا ولم تفعليه قط ؟ فتركها وقال: اذهبي بالدنانير لكِ، ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه قد غفر الله للكفل.

وعلى هذا فالكفل رجل آخر غير ذي الكفل المذكور في القرآن، واختلف في موقع قبره فقيل في الجنوب العربي لإيران بمدينة (دزفول) وأنه هو أبو نبي الله دانيال المقبور بمدينة (شوش) على بعد ٣٠ كيلو متر جنوب (دزفول) .

وقول آخر إنه بالشام في جبل يشرف على دمشق يقال له (قاسيون) ، وقيل في (بلدة الكفل) بالعراق ، وقيل : إنه في فلسطين في بلدة (كفل حارث) .

قال ابن كثير: والظاهر من ذكره في القرآن بالثناء عليه مقروناً مع الأنبياء أنه نبي مرسل من ربه ، وهذا هو المشهور، والذي عليه أكثر المفسرين أن ذا الكفل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجمعين، قال الرازي: والأكثرون أنه من الأنبياء عليهم السلام.

وقال ابن كثير: (وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قُرن مع الأنبياء إلا وهو نبي) ،

وقال الآلوسي: وظاهر نظم ذي الكفل في سلك الأنبياء عليهم السلام أنه منهم، وهو الذي ذهب إليه الأكثر.

وقال ابن عاشور: وأما ذو الكفل فهو نبيٌّ اختُلِفَ في تعيينه، فقيل: هو إلياس المسمى في كتب اليهود (إيليا)، وقيل: هو خليفة اليسع في نبوة بني إسرائيل. والظاهر أنه (عُوبديا) الذي له كتاب من كُتب أنبياء اليهود، وهو الكتاب الرابع من الكتب الاثني عشر، وتعرف بكتب الأنبياء الصغار.

وذهب آخرون إلى أن ذا الكفل ليس بنبي، بل كان رجلاً صالحاً، وقد روي عن مجاهد في قوله سبحانه: {وذا الكفل}، قال: رجل صالح غير نبي، تكفل

لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقيمهم له، ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي: ذا الكفل، وقد استدل الرازي على كون ذي الكفل نبيًّا بأدلة ثلاثة:

الأول: أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقباً، وأن يكون اسماً، والأقرب أن يكون مفيداً؛ لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد، فهو أولى من اللقب. إذا ثبت هذا، فيقال: (الكفل) هو النصيب، قال تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾[الحديد:٢٨]، والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم، فوجب أن يكون ذلك الكفل، هو كفل الثواب، فهو إنما سمي بذلك؛ لأن عمله وثواب عمله، كان ضعف عمل غيره، وضعف ثواب غيره، ولقد كان في زمنه أنبياء، ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الأنبياء.

الثاني: أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسماعيل وإدريس، والغرض ذِكْرُ الفضلاء من عباده؛ ليُتأسى بهم، وذلك يدل على نبوته.

الثالث: أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء، فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي، ولم يتعرض القرآن الكريم لقصة هذا النبي من قريب أو بعيد، بل غاية ما فعل أن ذكره ضِمْن عدد من الأنبياء، وصفهم بالصابرين والأخيار.

روى المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إن نبياً من أنبياء بني إسرائيل، آتاه الله الملك والنبوة، ثم أوحى الله إليه أني أريد قبض روحك، فاعْرِضْ مُلْكَكَ على بني إسرائيل، فمن تكفَّل لك أنه يصلي بالليل حتى يصبح، ويصوم بالنهار فلا يفطر، ويقضي بين الناس فلا يغضب، فادفع ملكك إليه، فقام ذلك النبي في بني إسرائيل وأخبرهم بذلك، فقام شاب، وقال: أنا أتكفل لك بهذا، فقال في القوم: من هو أكبر منك فاقعد، ثم صاح الثانية والثالثة، فقام الرجل، وقال: أتكفل لك بهذه الثلاث، فدفع إليه ملكه، ووفَّى بما ضمن، فحسده إبليس، فأتاه وقت القيلولة، فقال: إن لي غريماً قد ماطلني حقي، وقد دعوته إليك فأبى، فأرسل معي من يأتيك به، فأرسل معه، وقعد حتى فاتته القيلولة، ودعا إلى صلاته، وصلى ليله إلى الصباح،

ثم أتاه من الغد عند القيلولة، فقال: إن الرجل الذي استأذنتُك له في موضع كذا، فلا تبرح حتى آتيك به، فذهب وبقي منتظراً حتى فاتته القيلولة، ثم أتاه، فقال له: هرب مني، فمضى ذو الكفل إلى صلاته، فصلى ليلته حتى أصبح، فأتاه إبليس وعرفه نفسه، وقال له: حسدتُك على عصمة الله إياك، فأردتُ أن أخرجك حتى لا تفي بما تكفلت به، فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه، فسمي ذا الكفل.

ومن هذه المتابعات تبين أن الإشارة إلى علاقة مسمى «بوذا» بنبي الله «ذي الكفل» ليست مستبعدة ، وعند عمق النظر فيما ذكره الباحثون يستفاد من البحث العلمي أن البوذيةَ ديانةٌ محرَّفةٌ عن نبوة ذي الكفل ، والبوذية الآن ملة وثنية سائدة في أصقاع الصين والهند وجزيرة سيلان، والإسلام دين يحرر الإنسانية من الوثنية والكفر إلى عقيدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

فالمطلب تقريب الفهم لدى أتباع هذه الديانة كي يرجعوا إلى ذات حقيقتها الصحيحة ، فيتحرروا عن شائبة عقيدة الكفر الإبليسية التي هيمنت في كل عصر على أتباع الرسل ، مُحَرِّفَةً دينَهم وفق مراد الشيطان.

الدرس الأربعون

أصحاب القرية

وَبَعَثَ اللهُ لِأَهْلِ قَرْيَةٍ ثَلَاثَةً مِنْ كُلِّ عَبْدٍ مُرْسَلِ
قَدْ ذُكِرُوا فِي نَصِّ يَسٓ وَقَدْ حَلَّتْ بِهِمْ صَيْحَةٌ يَوْمٍ مِفْصَلِ

يشير الناظم إلى رسالة الأنبياء الثلاثة الذين بعثهم الله إلى القرية المشار إليها في سورة يسٓ بقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ
لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ
ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ
قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞
وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ

﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ .

وقد ذكر المفسرون هذه المرحلة أنها على أرجح الأقوال ما بين مرحلة «ذي الكفل» ومرحلة يونس عليهما السلام ، وقيل : هم من رسل عيسى عليه السلام، وهو قول قتادة، وقد أفاضت السورة الوصف عن الرسل الثلاثة وموقف القوم من الرسالة ، واختلف المفسرون في اسم القرية وأسماء الرسل، والخلاصة التي تهمنا في فقه التحولات أن هذه المرحلة نموذج من نماذج الشعوب الكافرة بالله والرسل ، وقد ذكر أن أولئك القوم عندما سمعوا مقالة نبيهم قتلوه ، قيل رجماً ، وقيل وثبوا فوقه ، وقيل وَطِؤُوهُ بأرجلهم حتى مات وعذبهم الله بالصيحة كما وصفها القرآن: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ [يس:٢٩].

الدرس الواحد والأربعون

نبوة يونس عليه السلام

وَبَعَثَ اللهُ لِأَهْلِ نِينَوَىٰ ... في حَاضِرِ العِرَاقِ أَرْضِ المُوصِلِ
يُونُسَ دَاعياً لَهُمْ إِلَىٰ الهُدَىٰ ... فَكَذَّبُوا وَجَاهَرُوا بِالجَدَلِ
فَضَاقَ ذَرْعاً وَدَعا بِدَعْوَةٍ ... عَلَيْهِمُ وراغَ نَحْوَ الجَبَلِ
مُرْتَحِلاً عَنْهُمْ فتابُوا بَعْدَهُ ... وَرُفِعَ العَذَابُ دُونَ مَهَلِ
وَابْتُلِيَ النَّبِيُّ في رِحْلَتِهِ ... حَتَّىٰ رَمَاهُ الحُوتَ عَارِي الحِيَلِ
وَعَادَ لِلْقَوْمِ نَبِيّاً فِيهِمُ ... وَمُتِّعُوا حِيناً مِنَ الدَّهْرِ الخَلِي

يشير الناظم إلى مرحلة النبي يونس عليه السلام، وهو النبي الذي بعثه الله لأهل نينوى من أرض الموصل بالعراق، وبقي يدعوهم إلى الله أعواماً مديدة فكذبوه وتمردوا عليه وأصروا على كفرهم وعنادهم، فدعا عليهم وقَبِلَ اللهُ دعوته وحدد أيام عذابهم كما هو مذكور في كتب التفسير، وخرج من بين أظهرهم وتحققوا نزول العذاب ورأوا دلائل الموعودات التي أنذرهم بها يونس عليه السلام، فطلبوه فلم يجدوه، فما كان منهم إلا أن ندموا على ما كان منهم واجتمعوا يصرخون ويتضرعون إلى الله بالدعاء كي يرفع عنهم العذاب، فلما علم الله صدقهم رفع عنهم العذاب قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

وهذا نموذج لا مثال له في مراحل الرسالات السماوية يشير إلى أن مجرى

القضاء والقدر قد يرده صدق الدعاء من العباد عند الاعتراف والرجوع منهم لربهم ، وأن الرحمة الإلهية تغشى التائبين ولو كان نبيهم قد أيس منهم وغادرهم مستيقناً نزول العذاب عليهم ، فكان مثالاً لاختبار الحق لبعض أنبيائه عند اتخاذهم القرار الذاتي دون انتظار الوحي السماوي ، بل صار دعاؤه في بطن الحوت مدرسةً أزليةً للعباد كي يرجعوا إلى الله عند الزلة والمعصية بقوله تعالى: ﴿ **فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الأنبياء:٨٨].

وصار يونس عليه السلام مدرسةً في تاريخ النبوة ، يضع صلى الله عليه وآله وسلم تأكيداً ذلك على عموم المؤمنين في قوله: «**لا ينبغي لعبدٍ مسلمٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ**» رواه أحمد (١٠٠٤٨)، وفي رواية البخاري: «**ولا أقولُ: إن أحداً خيْرٌ من يونُسَ بنِ مَتَّىٰ**» كتاب الأنبياء (٣٤١٥)، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل هذا القول أيضاً هو من باب التواضع وتعليم أمته ذلك ، وإلا فهو أشرف الأنبياء بلا خلاف.

الدرس الثاني والأربعون

مراحل نبوة موسى وهارون عليهما السلام

وَجَاءَ مُوسَىٰ مِفْصَلاً مُنْفَرِداً … فـي عَهْدِ طُغْيَانِ المُلُوكِ البُزَّلِ
فِرْعَوْنُ أَوْ هَامَانُ أَوْ قَارُونُهُمْ … عِصَابَةٌ قَامَتْ بِحَرْبِ الرُّسُلِ
مِيلادُ مُوسَىٰ قِصَّةٌ مَشْهُودَةٌ … وَسَيْرُ تَابُوتٍ لِبَيْتِ العُذَّلِ
آسِيَةٌ قَالَتْ دَعُوهُ رُبَّمَا … يَنْفَعُنا يَوْماً بِشَيْءٍ عَمَلِي
وَأُخْتُهُ كَانَتْ عَلَىٰ خَوْفٍ بها … تُرَاقِبُ الطِّفْلَ الَّذِي لَمْ يَأْكُلِ
قَالَتْ أَلَا أَدُلُّكُمْ لِمُرْضِعٍ … مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ نَاصِحٍ مُجْمَّلِ
فَوَافَقُوها فَأَتَتْ بِأُمِّهِ … فَأَرْضَعَتْهُ بِمَزِيجِ الأَمَلِ
وَصَدَقَ الوَعْدُ وَقَرَّتْ عَيْنُها … كَمَا أَتَىٰ فِي الوارِدِ المُدَلَّلِ
وَحِكْمَةُ الأَقْدَارِ أَعْلَىٰ حِكْمَةٍ … لِكُلِّ عَبْدٍ صَادِقِ التَّأَمُّلِ
فَحِفْظُ مُوسَىٰ قَدَرٌ في بَيْتِ مَنْ … يَخَافُهُ الفِرْعَوْنُ فِي المُسْتَقْبَلِ
وَقَدْ قَضَىٰ ذَبْحاً لِكُلِّ هَادِفٍ … مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَانْظُرِ الأَمْرَ الجَلِي

وهي أول مراحل رسالة «بني إسرائيل»، وهي بذلك مفصلٌ تاريخيٌّ في مراحل النبوة، وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ومثله أخوه هارون عليهما السلام، وولد موسى وهارون بعد القضاء على حكم الهكسوس قبل حكم الفراعنة، وكان اليهود

محسوبين على الهكسوس ، فعوملوا من الفراعنة باضطهاد شديد ، وأخذ فرعون يذبح من ذكور بني إسرائيل سنة بسنة ، فولد هارون في سنة العفو وولد موسى في سنة الذبح ، وقصته مع أمه وأخته وعودته إلى بيت فرعون مشهورة.

وكان هارون نبياً في الأزل إلا أن ظهوره كان بطلب موسى من ربه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:٢٩-٣٥]، ثم قال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، وفي سورة مريم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣].

وهارون هو النبي الوحيد الذي نال النبوة بطلب موسى من ربه دون غيره من الأنبياء على ما نعلم والله أعلم، وقصة موسى أكثر قصص القران بسطاً وشرحاً وتفصيلاً من غيره ، مما يجعل نبوته ومرحلته مفصلاً تاريخياً هاماً في دراسة الحياة الإنسانية من وجهة النظر الشرعية ، وجاءت قصته على مراحل متتابعة، وإليها يشير الناظم مبتدأً بخبر ميلاد موسى ووضعه في التابوت وما كان من قدر الله بعد وضع أم موسى التابوت في النهر، وتوجيهه بأمر الله إلى منزل فرعون، وذهاب أخته تراقب التابوت حتى قالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم؟ وتحقيق الحق سبحانه الوعد لأم موسى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، وعرج الناظم على حكمة الأقدار التي حفظ الله بها موسى عليه السلام مع أن فرعون أمر بذبح كل مولود يولد في بني إسرائل.

ذهاب موسى إلى مدين

وجَـرَتِ الأَقْـدَارُ مَجْرَاهـا عَلَـىٰ | مُوسَـىٰ بِوَكْـزٍ لِلْفَتَـىٰ المُنْقَتِـل
فَأَخَـذَ الطَّرِيـقَ نَحْـوَ مَدْيَـنِ | فـي خُفْيَـةِ الْلَيْـلِ البَهِيـمِ الأَلْيَلِ
حَتَّـىٰ أَتَـىٰ بِئْـراً عَلَيْهَـا نَفَرٌ | مِـنَ الرُّعَـاةِ يَنْزَحُـونَ بالدُّلِـي
فَاسْتَسْـقَتِ البَنَاتُ مُوسَـىٰ فَسَقَىٰ | مَـاءً ووَلَّـىٰ نَحْـوَ ظِـلٍّ مُخْضِلِ
وَجَـاءَتِ الفَتَـاةُ تَدْعُـوهُ عَلَىٰ اسْـ | ـتِحْيائِهـا فـي ثَوْبِهـا المُرَحَّـلِ
فـكانَ مَأْمُونـاً عَلَـىٰ أَنْ لا يَـرَىٰ | مِنْ جِسْمِهَا ما هَاجَ شَوْقَ الرَّجُلِ
وَنَـالَ بِالصَّبْـرِ نِكاحـاً شَـرْطُهُ | عَشْـرٌ مِنَ الأَعْـوَامِ رَعْيَ الغُفُلِ
أَتَـمَّـهَـا وَعَـــادَ نَـحْـوَ قَـوْمِـهِ | فـي رِحْلَـةٍ عَجِيبَـةِ التَّنَقُّـلِ

يشير الناظم إلى أحد مفاصل حياة موسى عليه السلام، ومنها قتله للقِبْطِيّ كما وصف ذلك القرآن: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥]، وما ترتب على هذه الحادثة من تخفي موسى من الأقباط مخافةَ أن يُقتل: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢١]، فأخذ الطريق نحو مدين من أرض

الشام: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢].

ولما بلغ مدين رأى الرعاة يَسْقُون من البئر ، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

ويطرق الناظمُ القصةَ التي أشارت إليها الآيات في سورة القصص ، وما كان من أمر ابنة شعيب ومجيئها تدعوه إلى استجابة أبيها ، وفي الآية الآتية إشارة إلى خجل الفتاة وأدبها ، قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾.

وذهاب موسى معها يقفوا أثرها ، ويصف القرآن دخول موسى على نبي الله شعيب: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

وتدخلت الفتاة التي كان من حظها نكاح موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص:٢٦]، وعرض عليه شعيب الأمر: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص:٢٧].

ووافق موسى على العرض الأخير ومكث العشر السنوات وتزوج خلالهما وصاحب شعيباً عليه السلام حتى انقض الأجل وطلب الإذن منه بالعود مع أهله إلى مصر: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص:٢٩].

الدرس الرابع والأربعون

تحمل الرسالة والآيات

فَـآنَـسَ الـنَّـارَ عَـلَـىٰ مَـسَـافَـةٍ	فَتَـرَكَ الأَهْـلَ لِجَلْـبِ المِشْـعَلِ
وَلَـمْ يَكَـدْ يَبْلُـغُ حَتّـىٰ هَالَـهُ	صَوْتُ المُنَادِي أَنْتَ عَبْدِي مُرْسَلِي
اِذْهَـبْ إِلَـىٰ فِرْعَـوْنَ دَاعٍ لِلْهُـدَىٰ	بِالْلِيـنِ والتَّقْرِيـبِ وَالتَّحَمُّـلِ
وَالْـقِ عَلَىٰ الأَرْضِ عَصَاكَ لا تَخَفْ	مِـنْ حَيَّـةٍ جَاءَتْـكَ بِالتَّحَـوُّلِ
وَادْخِلْ يَداً في الجَيْبِ كَالشَّمْسِ تَرَىٰ	مُعْجِـزَةَ الإِبْـلَاغِ حِيـنَ تَنْجَلِـي
وَقَـالَ مُوسَـىٰ رَبِّ هَـبْ لـي سَـنَداً	أُشْـدُدْ بِـهِ أَزْرِي أَمَـامَ المَحْفَـلِ
هَـــارُونُ فـي لِـسَـانِـهِ فَصَاحَةٌ	لَيْسَـتْ كَمِثْلي فَهْوَ دِرْئِي وَسَـلِي
فَنَـالَ مَـا يَرْجُـوهُ مِـنْ إِلٰهِـهِ	وَنَسِيَ الأَهْلَ عَلَىٰ الوَادِي الخَلِي
مُـتَّـجِـهـاً بِـعَـقْـلِـهِ وَرُوحِــــهِ	مُتَّخِـذاً سَـيْرَ الفَتَـىٰ المُسْـتَعْجِلِ

يشير الناظم إلى مرحلة التجلي التي منَّ الله بها على موسى وهو في طريق عودته مع أهله إلى مصر ، وقد ذكرت الآثار أن زوجته كانت حينها تعاني من الطلق فرأى النار على بعد فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه:١٠]، ولكنها كانت المناجاةُ المعبَّرُ عنها في قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢]، وجرى لموسى في تلك الساعة العظيمة أمر جلل بدأ بالصوت الذي سمعه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠]، وفي سورة طه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ

أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا
وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه:١٦] حتى قال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ
خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه:٢٣] .

وأدت المناجاة بين موسى وربه إلى أن استخلص منها:

- حمل الرسالة إلى فرعون من قومه ودعوتهم إلى الله.
- طلبه أخاه هارون وزيراً وعضداً ، فنال مطلبه.
- مِنّة الله على موسى بتذكيره رعاية الله له في حياته مستعرضاً حال أمه حالة إلقائها له في التابوت ، ووصوله إلى فرعون ، وإلقاء المحبة عليه بتلك الحادثة في قلب آسية ، التي طلبت إبقاءه حياً بقولها في سورة القصص: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩]. واستعرض الحق سبحانه ما فعلته أختُه ، ودلالتها على أم موسى كي تقر عينها ولا تحزن، وذكّره بحادثة القتل التي جرت على يده للقبطي وما أصابه من الهم والغم لذلك، فأجرى الله الأسباب لنجاته وأبلغه إلى مدين ليمكث فيها عدداً من السنين: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١].
- مخاطبة الحق لموسى وهارون معاً في تلك الساعة: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

وتنتهي المحاورة بالتوجه من موسى في حينه تاركاً زوجته وأغنامه ، مجتهداً في الوصول إلى مصر لأداء الأمانة.

الدرس الخامس والأربعون

عودة موسى إلى مصر وبدء البلاغ

وَجَاءَ مُوسَىٰ نَحْوَ مِصْرٍ دَاعِياً ... لِقَوْمِهِ بِدِينِ مَوْلَاهُ العَلِي
وَمُخْبِراً هَارُونَ مَا أَكْرَمَهُ ... مَوْلَاهُ بِالمَنْحِ المَدِيدِ الأَشْمَلِ
مُحَذِّراً فِرْعَوْنَ مِنْ طُغْيَانِهِ ... وَطَالِباً فَكَّ الحِصَارِ المَرْحِلِي
فَغَضِبَ الفِرْعَوْنُ مِمّا قَالَهُ ... وَقَالَ لِلْقَوْمِ أنا الرَّبُّ العَلِي
مَا كانَ مُوسَىٰ غَيْرَ بَاغٍ قَاتِلٍ ... رَبَّيْتُهُ في نِعْمَتِي وَمَنْزِلِي
فَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّمَا أَدْعُوكُمُ ... لِمَنْ لَهُ أَمْرِي كذا تَوَكُّلِي

يشير الناظم إلى المرحلة الهامة من حياة موسى عليه السلام ، وهي مرحلة
حمل الرسالة إلى فرعون وملأه كما وصف القرآن ذلك عنه في سورة
الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾
[الشعراء:١٦-٢١]، ودار الحوار الحاد بين فرعون وموسى يقول فرعون: ﴿قَالَ
فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا
بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

[الشعراء:٢٣-٣١].

الدرس السادس والأربعون

عرض الآيات والاتهام بالسحر

وَطَلَبَ الفِرْعَوْنُ مِنْهُ آيَةً لَمَّا بَدَتْ وَلَّىٰ وَرَاءَ المَحْفَلِ
وَلَمْ يَزَلْ فِرْعَوْنُ يُمْلِي رَأْيَهُ وَقَالَ هٰذا سَاحِرٌ قَدْ حَاكَ لي
فَلْتَجْمَعُوا الأَمْثَالَ في مِهْنَتِهِ حَتَّىٰ يَبُوءَ بَيْنَهُمْ بِالفَشَلِ
وَاجْتَمَعُوا في زِينَةٍ مَشْهُودَةٍ وَقَالَ أَلْقُوا ما بِأَيْدِيكُمْ إِلَيْ
عَقَارِبٌ تَسْعَىٰ وَحَيَّاتٌ بَدَتْ تُزَلْزِلُ القَلْبَ بِسِحْرٍ مَهْزَلِي
وَخَافَ مُوسَىٰ مِنْ رَهِيبِ سِحْرِهِمْ حَتَّىٰ أَتَاهُ الوَحْيُ مِنْ رَبٍّ عَلِي
أَلْقِ عَصَاكَ سَوْفَ تُكْفَىٰ شَرَّهُمْ فَالْتَقَمَتْهُمْ لَمْ تَذَرْ مِنْ أَحْبُلِ
وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ المَنَصَّاتِ فما أَبْقَتْ لَهُمْ مِنْ مُدْبِرٍ أَوْ مُقْبِلِ
وَسَجَدُوا لِلَّهِ لَمَّا شَاهَدُوا آيَاتِهِ وَكَمْ بَكَتْ مِنْ مُقَلِ

يشير الناظم إلى مفصل الاختبار الصعب حول إثبات حقيقة النبوة بما معه من آيات، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء:٣٢-٣٣]، فاشتاط فرعون غضباً وتمالك أمره بعد أن أصابه الخوف من الآيات ، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٧]، واتفق القوم على يوم الزينة وقال لهم موسى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾

[طه:٥٩]، وكان الاجتماع الموعود في حينه ، ووصف الله سبحانه هذا الموقف
في أكثر من سورة من سور القرآن ومنها سورة طه حيث قال: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ
إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ
إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ
ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٦٥-٧٠]،
وغمر المكان الفوضى والخوف ، واتجهت الحية إلى حيث يجلس الفرعون وملئه فولوا هاربين خائفين ، وأخذ موسى عصاه لتعود سيرتها الأولى.

جبروت فرعون وقتل المؤمنين من السحرة

وَلَمْ يَكَدْ فِرْعَوْنُ يَحْمِي نَفْسَهُ حَتَّىٰ قَضَىٰ بِقَطْعِ كُلِّ مِفْصَلِ
لِكُلِّ مَنْ قَدْ سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ فـي مَشْهَدٍ مُنْفَرِدٍ فـي المَثَلِ
وَبَلَغَتْ آيَاتُ رَبِّي مَبْلَغاً مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بِحَالٍ مُخْذِلِ
وَجَمَعَ الفِرْعَوْنُ في سَاحَتِهِ أَقْوَامَهُ بِصَوْتِهِ المُجَلْجِلِ
نَادَاهُمُ أَلَيْسَ لي المُلْكُ هنا وَهٰذِهِ الأَنْهارُ مِنّي وَإِلَيْ
فَلْيَأْتِنِي مُوسَىٰ وَمَنْ يَزْعُمُهُمْ أَمْلَاكُ رَبٍّ آخَرٍ يَعْلُو عَلَيْ
أَمْنَحُهُمْ أَسْوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ فَالمَالُ مالي وجَمِيعُ الأَرْضِ لي
فَافْتَتَنَ الأَقْوَامُ في حَضْرَتِهِ مِمَّا عَرَاهُمْ مِنْ صُنُوفِ الحِيَلِ
وَضَاعَفَ اللّٰهُ البَلَاءَ فِيهِمُ بِعَشْرِ آياتٍ بها النَّصُّ تُلِي
وَقَبِلَ الفِرْعَوْنُ أَنْ يُطْلِقَهُمْ فَخَرَجُوا عَلَىٰ مُتُونِ الإِبِلِ
وَأَخْرَجُوا مَتَاعَهُمْ وَخَيْلَهُمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ ثَرَوَاتٍ وَحُلِي

يُشير الناظم إلى نتائج العرض العام الذي أراد فرعون من خلاله أن يكشف سحر موسى كما كان يظن ذلك ، فانقلب الأمر إلى إيمان السحرة وسجودهم لله أمام المحفل كله ، مما زاد فرعون طغياناً وجبروتاً ، حيث أمر بصلب السحرة المؤمنين وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وقد وصف الله

سبحانه وتعالى هذه الحالة بقوله في سورة طه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢].

وخرج فرعون مهزوماً منفعلاً من تجربته الأولى في التحدي لموسى، وشعر بحاجته إلى إعادة الثقة في نفوس أتباعه وقومه، فجمعهم وقام فيهم خطيباً مهدداً ومتوعداً وساخراً من موسى ودعوته، وإلى ذلك تشير الآيات في سورة الزخرف: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزُّخرُف:٥١-٥٤].

وزاد طغيان فرعون وغليانه فأمر هامان وزيره ببناء صرح يطلع منه على إله موسى قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧]

، ويشير الناظم إلى ما ابتلى الله به قوم فرعون من الآيات المذكورة في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣].

وبقي موسى وهارون ينازعان فرعون في إطلاق بني إسرائيل ليخرجوا من مصر إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون في كل مرة من حصول الآيات يعدهم ثم يخلف وعده ، حتى كانت المرة الأخيرة ، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٤-١٣٥]، وفي آخر المطاف قَبِلَ فرعون خروجهم ودَبَّرَ لهم مكيدة في نفسه ، وجمع بنو إسرائيل بعد ذلك الإطلاق حليهم ومتاعهم وكل ما يملكونه، واتجهوا نحو البحر الأحمر في طريقهم إلى صحراء سيناء مع نبيهم موسى وهارون قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء:٥٢] ، وفي سورة طه ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:٧٩].

الدرس الثامن والأربعون

خروج بني إسرائيل واتّباع فرعون لهم وغرقه في البحر

وَقَـرَّرَ الفِرْعَـوْنُ أَنْ يَتْبَعَهُـمْ ... بِقَوْمِهِ في حَشْدِ جَيْشٍ جَحْفَلِ
وَقَـالَ إنّـا غائِضُـونَ مِنْهُـمُ ... وَحَـذِرُونَ مِنْ صُنُـوفِ الحِيَلِ
فَأُخْرِجُوا مِـنْ زَرْعِهِمْ وَضَرْعِهِمْ ... وَنَعْمَةٍ كَانَـتْ وَعَيْشٍ مَخْمَلِي
أَقْـدَارُ رَبِّـي قَـدْ أَتَـىٰ مِيعَادُهـا ... تَمَّتْ وَعَمَّتْ بِالقَضَاءِ الفَيْصَلِ
وَلَـمْ يَـزَلْ فِرْعَـوْنُ فـي طَرِيقِـهِ ... مُلَاحِقـاً مُوسَـىٰ بِـكُلِّ عَجَـلِ
حَتَّىٰ تَـرَاءَىٰ القَوْمَ رِئْيـاً واضِحاً ... مَـسَـافَـةً قَـرِيـبَـةَ الـتَّـوَصُّـلِ
فَقَـامَ مُوسَـىٰ دَاعِيـاً لِرَبِّـهِ ... وَمُسْـتَغِيثاً بِعَظِيـمِ الجُمَـلِ
فَقِيـلَ فَاضْـرِبْ بِعَصَـاكَ هَاهُنـا ... فَانْفَلَـقَ البَحْـرُ انْفِـلَاقَ الجَبَلِ
وَصَارَتِ الأَرْضُ يَبَاسـاً فَمَشَـىٰ ... مُوسَىٰ وَمَنْ في رَكْبِهِ المُرْتَحِلِ
وَجَـاوَزُوا البَحْرَ وَهُمْ في دَهْشَـةٍ ... وَلَحِـقَ الفِرْعَـوْنُ دُونَ مَهَـلِ
حَتَّـىٰ إذا مَـا بَلَغُـوا فـي لُجَّـةٍ ... وَارَاهُـمُ المَـوْجُ بـلا تَمَهُّـلِ
وَغَرِقُـوا جَمِيعُهُـمْ فـي لَحْظَـةٍ ... مَوْقُوتَـةٍ بَعْـدَ انْقِطَـاعِ الحِيَـلِ
وَأُلْقِيَـتْ جُثَّـةُ فِرْعَـوْنَ عَلَـىٰ ... ظَهْرِ مِيَاهِ البَحْرِ جِسْـماً مُمْتَلِي

يشير الناظم إلى حشد فرعون كافة وسائله الإعلامية لإبراز موقعه الفرعوني واستحقاقه الملك فجمع قومه وقام فيهم خطيباً : ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ

فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزُّخرُف:٥١-٥٤].

وازداد طغيان فرعون وصعَّد من تأجيج قومه وإظهار تحديه السافر: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [غافر:٣٧].

وجاء في الآثار أن فرعون سخَّر بني إسرائيل لتشييد الصرح الذي طلبه من هامان، وكان يعذب من لم يقم بالمشاركة أو يتهاون في عمله، فقال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٩].

ولما أيس موسى من فرعون وقومه وشعر أن طائفة المؤمنين به لن يزدادوا أكثر ممن آمن معه قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس:٨٣]، وفي هذه المرحلة العصيبة وجه الحق موسى وقومه لمزيد من الطاعة والعبادة ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٨٧]، ووجَّه موسى قومه للصبر والتحمل للأذى في سبيل الله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس:٨٤-٨٦].

واتجه موسى إلى ربه يشكو ظلم فرعون وجبروته قائلا: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن

سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

وَلَـمْ تَـزَلْ بَاقِيَـةً لِمَـنْ وَعَـىٰ تَـذْكِـرَةً لِآخِـرٍ وَأَوَّلِ

يشير الناظم إلى انتقام الحق من جبابرة الكفر والظلم المجاهرين بالتحدي والتعدي بعد الإهمال، وكيف كان مصيرهم المحتوم، فبعد أن سار موسى بقومه جهة المشرق بأموالهم وأبنائهم تحرَّك فرعونُ بجيوشه خلفهم قال تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ [الشعراء:٥٣-٦٤].

وفي سورة يونس صوَّرَت الآياتُ موقفَ الغرق وحالة فرعون ساعة الغرق: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس:٩٠].

الدرس التاسع والأربعون

المصير الحتمي للطواغيت

وَأُسْدِلَ السِّتَارُ عَنْ مَرْحَلَةٍ | تَبْصِرَةً لِكُلِّ ذِي تَعَقُّلِ
فيها طَغَىٰ فِرْعَوْنُ في سُلْطَانِهِ | وَمِثْلُهُ هَامَانُ في التَّمَحُّلِ
وبعدهم قَارُونُ في أَمْوَالِهِ | مُسْتَكْبِراً بِالمَالِ وَالتَّمَوُّلِ
مَصِيرُهُمْ وَمَنْ بَغَىٰ مُسْتَكْبِراً | في النَّارِ مَذْؤُوماً رَهِينَ الأَسْفَلِ

وانتهت مرحلةٌ كاملةٌ بعُجَرِها وبُجَرِها ، وأشرقتْ على عالم بني إسرائيل شمس الانتصار والانبهار بالمعجزة الربانية وبالمجتمع الإيماني الجديد، وسار بنو إسرائيل في صحراء سيناء متوجهين إلى حيث تهفو قلوبهم وأرواحهم إلى الأرض المقدسة ؛ ولكن بني إسرائيل كانوا خليطاً من الأفكار والرؤى والمواقف ، ونماذج من الانتماء والولاء والبراء ، وكانوا بادئ ذي بدء مجتمِعِي الرأيِ تحت هيبةِ موسى وهارون ، وما تهيأ لهم في مسيرتهم من المعجزات المتلاحقة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ﴾[الأعراف:١٦٠] .

وكانت هذه المنحُ الربانيةُ مرافقةً لهم منذ تجاوزهم البحر حتى بدء الانحرافات الفكرية فيهم.

الدرس الخمسون

ما بعد تجاوز البحر ونجاة بني إسرائيل

وَسَارَ مُوسَىٰ بِجَمِيعِ قَوْمِهِ   فـي وَاسِـعِ الصَّحْـرَاءِ بِالتَّنَقُّـلِ
مَوْعِدُهُـمْ فـي رِحْلَـةٍ لا تَنْتَهِـي   إِلّا بِبَيْـتِ المَقْـدِسِ المُبَجَّـلِ
وَأَظْهَـرَ الشَّـيْطَانُ فِيهِـمْ عَجَبـاً   رَغْـمَ الَّـذِي قَـدْ نَالَهُـمْ مِـنْ أَمَلِ
وَمَـا رَأَوْهُ مِـنْ هَـلَاكٍ فَاضِـحٍ   لِزُمْـرَةِ الفِرْعَـوْنِ رَمْـزِ الدَّجَـلِ
فَشَـغَلُوا مُوسَـىٰ وَمَـا أَوْفَـوْا بمـا   قَـدْ وَعَـدُوهُ مِـنْ كَثِيـرِ المِقْـوَلِ
وَفِـي الطَّرِيـقِ عَبَـرُوا فـي أُمَّـةٍ   لَهُـمْ إِلٰـهٌ فـي بِنَـاءٍ هَيْكَلِـي
فَطَالَبُـوا مُوسَـىٰ إِلٰهـاً مِثْلَـهُ   كَأَنَّ مُوسَـىٰ جَاهِـلاً بِالمَثَـلِ
فَاسْـتَوْقَفَ الجَمْـعَ ونَـادَىٰ فِيهِـمُ   مُتَبَّـرٌ وَبَاطِـلٌ هٰـذا الوَلِـي
وَلِيُّكُـمْ مَـنْ فَلَـقَ البَحْـرَ لَكُـمْ   وَمَـنْ هَدَاكُـمْ لِلسَّـبِيلِ الأَمْثَـلِ

يشير الناظم إلى الانحرافات التي طرأت على بني إسرائيل بعد تجاوز البحر وهلاك فرعون ، ومنها **طلب الآلهة مثلما لغيرهم** ، حيث عبروا في طريقهم على أمة من الأمم يعبدون صنما اتخذوه إلهاً من دون الله فما كان من بني إسرائيل إلا أن أعجبوا بما رأو واجتمعوا على نبيهم موسى يطالبونه أن يجعل لهم صنماً يعبدونه كعبادة أولئك ### فغضب عليهم موسى عليه السلام ووصمهم بالجهالة والسخف والدنائة قال تعالى : ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا

كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٩]. ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٠] وذكرهم بآل الله ونعمائه عليهم كما عبر عن ذلك القرآن بقوله: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف:١٤١].

الدرس الواحد الخمسون

خروج موسى إلى طور سيناء لمكالمة ربه

وَأَوْعَدَ الرَّحْمٰنُ مُوسَىٰ مَوْعِداً لِلْإِلْتِقَاءِ عِنْدَ طُورِ الجَبَلِ
شَهْراً وَزَادَ الحَقُّ عَشْراً فَوْقَهَا وَقَامَ هَارُونُ مَقَامَ البَدَلِ

يشير الناظم إلى ما جرى من تحولات هذه المرحلة بعد تجاوز بني إسرائيل البحر ، وذهاب موسى إلى جبل الطور لمكالمة ربه ، بعد أن أمره الله بصيام ثلاثين يوماً أتمها بعشر فصارت أربعين يوماً، وعند توجهه استخلف هارون بدلاً عنه في نصح بني إسرائيل وحسن رعايتهم وتوجيههم، قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وكان تحذير موسى ملمحاً لما يتوقعه من بعده من إفساد في قومه ، وقد صدق حدسه وتوقعه، فموسى أكمل موعده المقرر من الصيام فكانت ثلاثين يوماً من شهر ذي القعدة وأتمها بعشر من ذي الحجة، وكان التكليم يوم العاشر موافقاً ليوم النحر في الإسلام، وطلب موسى من ربه رؤيتَه فأمره أن ينظر إلى الجبل فكان ما كان قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

ونال موسى من ربه ما ناله من الاصطفاء والقرب والمكالمة ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ

إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٤]، ومنحه اللهُ الألواحَ فيها تفصيلُ الحلال والحرام ومواعظُ عن الوقوع في المعاصي والآثام ، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف:١٤٥].

الدرس الثاني والخمسون

فتنة بني إسرائيل بالعجل

والسّـامِريُّ نَصَـبَ العِجْـلَ لهـم	مِـنْ ذَهَـبٍ يَخُـورُ دُونَ كَلَـلِ
وَقَـالَ هٰـذا رَبُّكُـمْ فَلْتَعْبُـدُوا	وَكَذَّبُوا هَارُونَ ذا النُّصْحِ الجَلِي
وَعَـادَ مُوسىٰ عَجِـلاً مُنْفَعِـلاً	يَجُـرُّ هـارونَ أَمَـامَ المَحْفَـلِ
وشَـدَّ مُوسَـىٰ نَحْوَ ذَاتِ السَّامِري	مُسَـائِلاً إِيّـاهُ عَمّـا قَـدْ بُلِـي
فَكَشَـفَ الأَوْرَاقَ عَـن أَسْـرَارِهِ	وَمـا عَنـاهُ مِـنْ صُنُـوفِ الدَّجَلِ
فَقَـالَ فَاذْهَـبْ لا مَسَـاسَ أَبـداً	مَوْعِـدُكَ المَقْـدُورُ عِنْـدَ الأَجَلِ
وَأَحْـرَقَ العِجْـلَ وَذَرَّ مَـا بَقِـي	مِنَ الرَّمادِ فـي الخِضَمِّ المُمْتَلي

يشير الناظم إلى إخبار الحق سبحانه وتعالى موسى بما صنعه قومه من بعده فقال: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾[طه:٨٥] ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾[طه:٨٨].

واشتد غضب موسى لما فعله قومه من بعده، وعاد إليهم غاضباً كما وصفته الآيات من سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأعراف:١٥٠].

كما أشار الناظم إلى أن السامري رجلٌ من بني إسرائيل اسمه هارون،

وفـي رواية موسـى، وأنـه رباه جبريـل وعلّمـه، وكان مما عَلِمَه تأثيرُ حافر فـرس جبريـل على تربة الأرض ، وأنه أخذ من هـذه التربة وحفظها معه حتى اسـتخدمها في فتنـة قومه بإحيـاء العجل، وقـد أثبت القرآن حـول هذا الأمر حـوار موسـى معـه بعد اتخـاذ العجـل فقـال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[طه:٩٦]، وفـي هـذه الآيـة تحليـل خطير عن السامري:

التحليل الأول: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: لديَّ عِلْمٌ لا يعرفونه.

التحليـل الثاني: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، إثبـاتٌ لتَمَيُّزِه بعلم الأثر الذي قبض منه القبضة.

التحليل الثالث: تأثيرُ وتسـويلُ النفس في اسـتغلال ذهاب موسى، وحبك القصة التي تبنّاها في إفساد بني إسرائيل.

التحليـل الرابـع: أَخْذُهُ الحُلِـيَّ الموِدوعةَ لدى بني إسـرائيل، وبدءُ صناعته للعجل الذهبي التمثال، وفيه ملحظٌ لاهتمام السـامري بالصناعة، وتسـخيرها في خدمة الكفر، ونجاحه في صياغة الأسـلوب المسرحي بين خوار العجل، وبين عقول بني إسـرائيل الذين إصابتهـم الفتنة، وانخدعوا بالعجل الإله كما سماه القرآن: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه:٩٧].

وثبتـت التهمـة الشـرعية علـى السـامري بالكفـر وخـداع بنـي إسـرائيل واسـتدراجهم بالخدعـة والحيلة ؛ لإفسـاد عقيدة التوحيد التـي علمهم إياها موسـى، ومـع عِظَـم هـذه الجريمة إلا أن موسـى اكتفى بإجـراء الحرق للإله المصنوع، وأما شخصية السامري فلم يجرِ عليها أيُّ حُكْم شَرْعِيٍّ ولا عقابٍ جزائيٍّ قال له ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[طه:٩٧].

واختلـف المفسـرون فـي تفسـير ذلـك ، ففريقٌ قال: إن موسـى دعـا عليه بالحمـى المعديـة وطَرَدَه شـرَّ طَـرْدَةٍ، وظـل يتخبط فـي عِلّته هاربـاً من نقل

عدواه إلى غيره، وانتقل المفسرون من المتابعة لذات السامري وهويته إلى الإجراءات المتخذة ضد العجل المصنوع.

ومع إقرار التفسير الذي تناولوه لكنهم لم يكشفوا النقاب عن هذه الشخصية المحمية من القتل على ارتكاب جريمة الكفر والإضلال، والذي نرجحه في الأمر ولا تنفيه النصوص ولا تتعارض معه أن هناك علاقةٌ أكيدةٌ بين مسمى السامري وبين الدجال الذي يظهر في آخر الزمان، وأن أسلوب الحوار منه مع موسى وعدم اتخاذ إجراء يتلاءم مع غيرة موسى ، الذي لم يترك حتى أخاه هارون فجَرَّهُ من رأسه ولحيته ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه:٩٤].

الدرس الثالث والخمسون

هل السامري هو الدجال ؟

غُمُوضُ شَأْنِ السّامِرِيِّ بَعْدَما — أَطْلَقَهُ مُوسَىٰ وَلَمْ يَسْتَمْهِلِ
ظَلَّ سُؤالاً ما له إِجَابَةٌ — وَبَابَ بَحْثٍ مُوغِلٍ في الجَدَلِ
فَالسّامِرِيُّ أَمْرُهُ مُشَابِهٌ — في بَعْضِ أَحْوالِ بِشَيْخِ الدَّجَلِ
وَقَدْ جَمَعْنَا حَوْلَ هٰذا مَبْحَثاً — مِنْ فِقْهِ عِلْمِ السَّاعَةِ المُفَصَّلِ
يُشِيرُ أَنَّ الأَمْرَ في تَشَابُهٍ — مُحَيِّرٍ يُفْضِي ازْدِيَادَ المُشْكِلِ

يخص الناظم هذه المسألة بفصل خاص يتضمن إثارة الكلام حول هوية السامري وعلاقته بالدجال، ورغم أن العلماء أيضاً سكتوا عنه ونقلوا ما نقله العلماء السابقون في شأن تفسير موقف موسى معه بعد ثبوت الكفر عليه، واستحق بذلك عقوبة الموت كما استحقها الذين عبدوا العجل، فأمر الله موسى أن يجعل تطهيرهم في قَتْلِ كُلِّ مَنْ عَبَدَ العجلَ من بني إسرائيل، لكن هذا الحكمَ لم ينله من كان سبباً في المشكلة من أساسها، وهو السامري..

فمن يا ترى هذا المخلوق الذي لم يَقْدِر موسى عليه؟

إن هذا المخلوقَ غيرُ مقدورٍ عليه بأمر الله كما جاء في الإشارة الضمنية من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا عمر لمّا هَمَّ بقتل ابن صياد معتبراً أنه الدجال بعينه ، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنْ يَكُنْ هُوَ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ**»، فثبتت المشابهةُ في حكم البقاء لهذه الشخصية المجهولة مع أن ابن صياد لو قُتِل فلن يعدوَ كونَه رجلاً من بني إسرائيل شك رسول الله في أمره، ولم يُفْصِحِ الوَحْيُ عنه ببيانٍ.

أما السامري فهناك عدة عوامل تشير إلى العلاقة المباشرة بالدجال ذاته،

وهذه العوامل مستخلَصَةٌ من فهم النصوص ، وليست حجةً في الإثبات لشخصيته.

ولكن من وجهة نظري البحثية فإن الأمر ليس بمستبعد من أن يكون السامريُّ هو الدجال وإن لم يكن لدينا دليلٌ قاطعٌ في ذلك .

فالمعلوم أن الدجال شخصيةٌ موصوفةٌ في النصوص بصفات متنوعة:

١. تربيةُ جبريل وتعليمه ، ومن تعليمه عَرَفَ سِرَّ الأثر.

٢. خروجه إلى الحياة الاجتماعية في عهد موسى ، وموقفُه موافقٌ لمن رباه جبريل.

٣. تأكيد النصوص على كونه من المُنْظَرِين، والمُنْظَرُون يحملون حصانةً أزليةً في البقاء إلى أن يأتي وعد الله، ولا يَقْدِرُ نبيٌّ ولا من دونه أن يُوقف دَوْرَهُم السلبي في الحياة الإنسانية، والدجال والشيطان شخصيتان مُنْظَرَتَانِ إلى أن يأتي وعدُ كلٍّ منهما في حينه، وعيسى والخَضِرُ على قول مُنْظَرانِ إيجابيّانِ إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا.

٤. قولـه صلى الله عليه واله وسـلم: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ إلا وَأَنْـذَرَ قَوْمَهُ الدَّجَّالَ : نُـوحٌ وَمَـنْ بَعْدَهُ ، وإِنّـي أُنْذِرُكُمُوهُ.. الحديثَ**»، أو كما قالوا: الإشـارةُ المسـتنبطةُ من النص أن شخصيةَ الدجال كانت متوقَّعَةَ الظهور في كل عصر من العصور السابقة ، من عصر نوح ومن بعده.

٥. يظل احتمال أن يكون السامري هو الدجال ، والدجال هو السامري، أمراً ليس ببعيد عن مطابقة الحقيقة.

وقد تناول هذا الموضوعَ بعض الباحثين المعاصرين وأثروا الكلام عن الاحتمال المشار إليه معتمدين على بعض الروايات والاستقراءات للآثار الكتابية.

وليس هنا موضع البسط لهذا الموضوع لأننا إنما نثبت المسألة بالنصوص فقط، ولا نعتبرها حقيقة مؤكدة، وإنما هي احتمال تؤيده القراءة الواقعية

والفهوم المستنبطة من القرآن والحديث.

وأهم ما في هذا الأمر أن شخصية الدجال تنتمي لليهود ، وشخصية السامري تنتمي إليهم، وشخصية ابن صياد تنتمي كذلك إليهم، وأكثر من يتبع الدجال اليهود والنساء كما ورد في بعض الروايات.

ومشكلة الواقع الإنساني المتنازع اليوم أنه يخدم الطائفة اليهودية، ويحقق أمانيها المزعومة ، والحرب الأخيرة في العالم الإسلامي على عهد نزول عيسى حربٌ على الدجال وأتباعه من اليهود، ويكون مقتله في مدينة اللد بفلسطين ، وهي أرض إسرائيل اليوم، وكافة الشواهد تدل على العلاقة الوثيقة بين مسيرة التطورات السياسية والاقتصادية والتعليمية والتربوية والإعلامية والثقافية والسياحية وتحرير المرأة، ومفاهيم حقوق الإنسان وما شابهها من التكتلات والمنظمات والأحزاب، وجملة الانتماءات ذات الصلة بالحركة الربوية العالمية، ومشاريعها السياسية الخاصة والعامة، تدل على علاقة وطيدة بين مسيرة الحياة الإنسانية، والمشروع الدجالي المتنامي، ولا تناقض بين الكلام عن السامري وبين الدجال الذي لقيه تميم الداري في جزيرة الجساسة، ودار معه الحوار الاستباقي عن مسيرة الفساد في الأرض على يده، فقد تناول الباحثون المقارنة بين هذا وذاك، فتبين بالبحث علاقة السامري بصاحب الجزيرة، وانه هو بذاته وكان تقييده بالسلاسل حسب الآثار القديمة مع ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وفاته.

وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من الجزيرة سائحاً في الأرض مستطلعاً خريطة البناء المستقبلي للدولة الدجالية العالمية الموعودة، وليس ببعيد أن يكون القول المتداول عن مثلث برمودا له علاقة وطيدة بموضوع الدجال وإدارة مملكته، وقد أسهبتُ في تناول هذا الموضوع كثيرا لأني رغم يقيني بعدم حجية الأقاويل المنقولة عن الآثار الإسرائيلية وغيرها ولكنها من باب «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ ، فَإِنَّهُ كَانَتْ فِيهِمُ**

الأَعَاجِيبُ» كما رواه أبويعلى وغيره بسند جيد.

وبنو إسرائيل أهل كتاب ، ولهم مكان في القرآن والسنة من حيث الذكر والإشارة وضوابط المعاملة معهم ؛ إلا أنهم زهدوا في سلامة الاتِّباع للدين الحنيف، وأخذت بهم الأهواء فصاروا مطيةَ الشيطان والدجال، ومرجعَ الدجاجلة والمفسدين في الأرض.

وبهذا الاستئناس المتناسب مع شخصية السامري والدجال يمكن القول أن ذكر الدجال قد جاء في القرآن صريحاً، فلفظ السامري وصفته وامتناع موسى عن إقامة حد الله فيه وطرده عن طائفة بني إسرائيل، والتصريح بأن له موعداً لن يخلفه يدل على ذلك بوضوح، ويجعل مسألة الاحتمال أقرب إلى الحقيقة ، وخاصة أن بعض المشككين في العلامات والفتن المضلة ينفون وجود حقيقةٍ اسمُها الدجال، وبعضهم يؤوّل المعنى إلى تعليل آخر .

ونرى –والله أعلم– من خلال دراستنا لفقه التحولات صحة وجود الدجال كذات، والدجالية كمرحلةِ تمهيدٍ وظهور، والدجاجلة كوكلاء مفسدين في قضايا الحكم والعلم والعلاقات الاجتماعية الشرعية.

الدرس الرابع والخمسون

مرحلة ما بعد عبادة العجل وعقوبة بني إسرائيل

وَغَضِبَ اللّٰهُ عَلَىٰ مَنْ عَبَدُوا | عِجْلَهَمُ المَنْصُوبَ دُونَ وَجَلِ
وَاخْتَارَ مُوسَىٰ مِنْ خِيَارِ قَوْمِهِ | سَبْعِينَ حَبْراً لِلِقَاءِ الأَفْضَلِ
مُعْتَذِرِينَ عَنْ فَسَادِ مَنْ بَغَا | وَعَبَدَ العِجْلَ بِلا تَعَقُّلِ
فَطَلَبُوا لَمَّا رَأَوْا نَبِيَّهُمْ | قَدْ خَاطَبَ المَوْلَىٰ بِسَفْحِ الجَبَلِ
أَنْ يَكْشِفَ اللّٰهُ الحِجَابَ لِيَرَوْا | مَوْلَاهُمُ بِالعَيْنِ دُونَ خَجَلِ
فَأُخِذُوا بِصَعْقَةٍ نَازِلَةٍ | لَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَداً فِي المَنْزِلِ
لٰكِنَّ مُوسَىٰ قَدْ دَعَا خَالِقَهُ | يُعِيدُهُمْ إِلَىٰ حَيَاةِ العَمَلِ
فَبُعِثُوا لِأَجْلِ مُوسَىٰ عِنْدَمَا | دَعَا لَهُمْ بِفُسْحَةٍ فِي الأَجَلِ

يشير الناظم إلى ما كان من نتائج سقوط بني إسرائيل في عبادة العجل، فبعد فراغ موسى من طرد الدجال ومعاتبة هارون أخذ موسى بإقامة العدل الشرعي على كل من عبد العجل تحت ظل السامري ، وكانوا سبعين ألفا ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤].

قال أهل التفسير : ألقى الله عليهم ضبابا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ، ثم مالوا على عابدي العجل فقتلوهم وحصدوهم في صبيحة واحدة، فكان حكم القتل عليهم حدا شرعيا وتوبةً لهم عند الله في

الآخرة، أما السامري لو قتل معهم لكان ممن يتوب الله عليه وينقطع أثره في المستقبل، ولكنه مخلوقٌ مُنْظَرٌ وفي إنظاره حكمة ، والنصوص الإسلامية كانت أكثر وضوحا في أسلوب التعامل مع الدجال وفتنته أكثر من التعامل مع كشف شخصية وتحديد هويتها.. فيا سبحان الله.

وما أن فرغ موسى من إقامة العدل الشرعي مع عبدة العجل حتى اختار موسى من صفوة علماء بني إسرائيل سبعين رجلاً لحضور موعد مولاه وميقات كلامه ، قال تعالى: ﴿ **وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا** ﴾ [الأعراف:١٥٥]، قال أهل التفسير : إن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وابيهوا، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل ، فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فأدخلهم موسى في الغمام المحيط بجبل الطور فسمعوا ما سمعوا من الأوامر والنواهي، ولما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ** ﴾[البقرة:٥٥] أي: الصعقة ، فماتوا جميعا ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه قائلا: ﴿**رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ** ﴾[الأعراف:١٥٥] أي: لا تؤاخِذْنا بما فعل السفهاءُ الذين عبدوا العجل منّا فإنّا بُرَءَاءُ مما عملوا.

وفي قوله ﴿**بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ**﴾ دليلٌ على أن عقلاء بني إسرائيل وأصحاب الرأي لم يعبدوه، وإنما عبده السفهاء الذين استخف عقولهم السامري، وهم الأكثرون.

واستعطف موسى ربه طالباً الرحمة لقومه وحسن التجاوز عنهم، فالذين أصابتهم الرجفة هم خيرة قومه وعلماؤهم، والذين عبدوا العجل وافتتنوا به إنما هم سفهاؤهم، وقد أصابتهم المشيئة من قبل فهلكوا:.﴿**إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ** ﴾[الأعراف:١٥٥] ﴿**وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا**

﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف:١٥٦].

وقبل الله دعاء موسى واستعطافه للسبعين من علماء قومه، فأظهر له ولهم بديع آياته بإحيائهم من بعد موتهم، فقاموا سويا من موتتهم لينظر بعضهم إلى بعض في دهشة واستغراب عظيم، واستمع السبعون الذين أحياهم الله لأمر جلل تلاه ربهم عليهم بواسطة موسى يذكرهم بمجيء نبي آخر الزمان محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما يجب على من أدركه من الإيمان به والاتباع لدعوته: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧].

وفي هذه الآيات ربط بين الماضي والحاضر وتذكير لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بشرف ورود البشارة به في زمنينِ سابقينِ لظهوره، وهما مرحلة التوراة ومرحلة الإنجيل، وكانت هذه البشرى في بني إسرائيل كرامةً من الله لهم بدعوة نبيهم موسى أن يأخذوا هذا العهد على أنفسهم ويورثونه من يأتي من بعدهم من أتباع التوراة والإنجيل، إلى عصر نبي آخر الزمان صلى الله عليه وآله وسلم، واستطراداً لهذا الخبر القرآني العظيم بأخذ العهد على من صحب موسى لميقات ربه ورؤيتهم لمعجزة الخلق بعد الموت، وارتقاء مستوى شعورهم في تلك الساعة بعظمة الخالق الذي يقول للشيء كن فيكون، فخاطب موسى ربه بما رآه مكتوبا في الألواح عن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الدرس الخامس والخمسون

مرحلة التيه وما جرى لبني إسرائيل

وَفِي طَرِيقِ السَّيْرِ نَحْوَ مَا دُعُوا   إِلَيْهِ فِي رِحْلَتِهِمْ مِنْ أَمَلِ
أَرْسَلَ مُوسَىٰ عَدَداً مِنْ قَوْمِهِ   كَنُقَبَاءَ فِي مَقَامِ الرُّسُلِ
يَسْتَطْلِعُونَ الأَرْضَ وَالأَمْرَ عَلَىٰ   مَا يَقْتَضِيهِ الحَالُ في المُسْتَقْبَلِ
وَعِنْدَمَا عَادُوا أَشَاعُوا كُلَّ مَا   يَقْضِي بِتَخْذِيلِ المَصِيرِ المُقْبِلِ
وَنَازَعُوا مُوسَىٰ بِمَنْ شَايَعَهُمْ   وَأَجْمَعُوا الأَمْرَ بِرَأْيٍ مُفْشِلِ
فَغَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَقَضَىٰ   عَذَابَهُمْ بِالتِّيهِ دُونَ مَهَلِ
فِي أَرْبَعِينَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ   لَمْ تُبْقِ من جيل الخروج المزجلِ
أَوْ عَاجِزٍ أَوْ مُدْنِفٍ أَوْ هَرِمٍ   وَكَمْ بِهَا مِنْ حَدَثٍ مُفَصَّلِ

يشير الناظم إلى مرحلة التيه التي عذب الله فيها بني إسرائيل بالضياع في الصحراء مدة أربعين عام يشدوا رحالهم للسفر فيصبحون حيث أصبحوا بالأمس، وفي هذه المدة الطويلة جرت لبني إسرائيل مع موسى قصص وعبر كثيرة ، وقد وصف الله امتناع بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة بقوله حاكياً عن نبيه موسى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٦].

قال الناظم:

وَطَلَبُوا اسْتِبْدَالَ مَا أَطْعَمَهُمْ مَوْلَاهُمُ بِعَدَسٍ وَبَصَلِ
فَضُرِبَتْ عَلَىٰ الجَمِيعِ ذِلَّةٌ أَفْضَتْ بِهِمْ إِلَىٰ الضَّيَاعِ المُفْشِلِ

وما أن فرغ موسى من دعوته حتى أتاه قومه يسألون الطعام فسأل موسى ربه فأنزل عليهم المن والسلوى، ثم قالوا: وأين الشراب ؟ فأمر الله موسى بضرب الحجر بالعصا فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط عين ، ثم قالوا: يا موسى أين الظلُّ؟ فنحن في صحراء محرقة ، فظللهم الله بالغمام، وظلوا على ذلك برهة من الزمن ، ثم جاؤوا إلى موسى قائلين: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾ فعتب عليهم وقال: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة:٦١].

الدرس السادس والخمسون

قصة بقرة بني إسرائيل

وَمِـنْ عَجِيـبِ الابْتِلَاءِ فِيهِـمُ   مَـا قَـدْ أَتَـىٰ مِـنْ خَبَـرٍ مُنَـزَّلِ
بِأَمْـرِ رَبِّـي ذَبْحُهُـمْ بَقَـرَةً   صَفْرَاءَ كَيْ تُبْدِي غَرِيبَ المَقْتَلِ
وَعَقَـدُوا أُمُورَهُـمْ بِبَحْثِهِـمْ   عَـن نَوْعِهَـا وَلَوْنِهَـا وَالمَنْـزِلِ
حَتّـىٰ اهْتَـدَوْا فَذَبَحُوهَـا وَأَتَـوْا   بِبَعْضِهَـا لِضَرْبِ جِسْـمِ الرَّجُلِ
فَعَـادَ حَيّـاً ثُـمَّ مَـاتَ بَعْدَمَـا   أَخْبَرَهُـمْ بِالقَاتِـلِ المُحْتَمَـلِ

يشير الناظم إلى ما أجراه الله على بني إسرائيل من الابتلاء جَرّاءَ تَعَنُّتِهِمْ واعتراضهم ، حيث ذَكَرَتْ كتب التفسير أن رجلاً منهم كان صاحب ثروةٍ فأصبح يوماً مقتولاً، واختلفوا في قاتله، واتُّهِمَ بالقتل ابن عمه الذي كان وريثَه الوحيد، وجاؤوا إلى موسى يحتكمون له في الأمر ، فأوحى الله إلى موسى أن يأمرهم بذبح بقرة ، ولو أنهم قبلوا الأمر كما هو وذبحوا بقرةً من مواشيهم لما تعقَّد الأمر عليهم ، ولكنهم أخذوا يتساءلون عن هوية البقرة، فكلما هداهم موسى لصفةٍ رجعوا إليه يسألون عن صفة أخرى، وكان سؤالهم قائماً على الجرأة على الله تعالى، حيث كانوا يقولون: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة:٦٨]، ولم يقولوا: ادع لنا ربنا، أو: ادع إلهنا وإلهك، فصرفهم الله إلى أوصاف بقرة ذات شأن كانت لولد بار بأبيه وأمه بقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨]، وفي الثانية بَيَّنَ لهم لونها، أما في المرحلة الثالثة فقد أوضح البقرة بعلامة أكبر: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ

﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِى ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١].

وللمفسرين كلامٌ وتحليلٌ متنوعٌ ومتشعبٌ لا حاجة لنا به في منهجنا، وإنما حاجتنا استعراض سير مراحل النبوة والأبوة، وعمق ما واجهته من الشرور والآثام من سلبيات الأنوية العقلانية الوضعية مع كل مرحلة يضيء الحقُّ فيها واقعَ البشرية، ومنها واقع نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام.

ولعل مدرسة (التيه) كانت أشد هذه المراحل على موسى وهارون، وقد اختلف المفسرون حول اشتراك موسى وهارون في مرحلة التيه، فمنهم من يرى أنهما اعتزلا القوم خلال هذه المرحلة حتى ماتا، وقولٌ آخر وهو الأرجح أنهما عاشا في التيه مع قومهما ، وقد خفف الله عنهما مشقة الحياة، وصرف عنهما أثر الشتات ، والله أعلم.

الدرس السابع والخمسون

قصة قارون ابن عم موسى

قَـدْ كَانَ قَـارُونُ وَزِيـراً عَالِمـاً | وَخَازِنـاً لِلْمَـالِ وَالتَّمَـوُّلِ
مُشَـارِكاً فِرْعَـوْنَ فـي دَوْلَتِـهِ | مُسْـتكْبِراً بِالمُلْـكِ وَالتَّجَمُّـلِ
وَقَصَّـتِ الآيَـاتُ مِـنْ أَخْبَـارِهِ | نَمَاذِجـاً عَـنْ كِبْـرَةِ المُرْتَـذِلِ
لَمَّـا رَأَىٰ مُوسَـىٰ وَمَـا قَـدْ حَـازَهُ | مِـنِ انْتِصَـارٍ وَاضِـحٍ مُسْـتَفْحِلِ
آمَـنَ بِاللّٰـهِ عَلَـىٰ إِبْطَانِـهِ | وَجَـاوَزَ البَحْـرَ رَفِيـقَ المُرْسَـلِ
وَكَادَ مُوسَـىٰ بِاتِّهَـامٍ فَاجِـرٍ | فَخَرَّ مُوسَىٰ سَاجِداً يَرْجُو العَلِي
إِهْـلَاكُ قَـارُونَ وَمَـا يَمْلِكُـهُ | فَـكَانَ مَـا كَانَ مِـنَ التجلجـلِ

يُشِيرُ الناظم إلى موقف قارون من ابن عمه موسى ، وكان قارون أحد زعماء بني إسرائيل المقربين من فرعون ، بل كان عيناً له على بني إسرائيل وسبباً في إذلالهم، وقد وصفه الله في سورة القصص شريكاً لفرعون وهامان في البغي والطغيان قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦].

وكان فرعون عظيم الثروة جميل الصورة حتى كانوا يسمونه «المُنَوَّر»، وعندما نصر الله موسى على فرعون تظاهر قارون بالإيمان وراح يقرأ التوراة رياءً ونفاقاً، ولما عبر بنو إسرائيل البحر عبر قارون معهم وفي نفسه ما فيها من الحقد والحسد على موسى ، وقد رأى ما مَنَّ الله به على موسى من الرسالة، وما لهارون من شرف الذبح لله والقرابين ، فقال لموسى: فماذا

يبقى لي أنا؟ فقال موسى: هذا ليس من عندي ولكنه تقدير العزيز العليم، فازداد قارون بغضاً وحسداً على موسى، وأخذ يتفنن في إيذائه والإساءة إليه، وموسى ظل صابراً عليه مراعاةً لحُرْمَةِ القرابة، وقد وصفتْ سورة القصص طرفاً من أحواله وتكبره وتجبره مع موسى، ومع قومه من بني إسرائيل، حيث نصحوه بأن لا يفرح بما آتاه الله من الدنيا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٧٦-٧٧]، ولكن هذا النصح لم يزده إلا عتواً وجبروتاً، فنفى نسبة المال والنعمة التي هو فيها لربه، وإنما أعطي المال بسبب العلم الذي عنده: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص:٧٨].

وَأَعَدّ قارون لموسى مكيدةً أراد بها أن ينزع محبة موسى من قومه، فتواطأ على الكذب مع مُومِسٍ من مُومِسات بني إسرائيل، على أن تعلن على الملأ فعل موسى الفاحشة بها، واختار قارون يوماً من أيام اجتماعهم، وقام موسى يعظهم ويذكرهم بالله وحدوده، وقال: «يا بني إسرائيل.. من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنا جلدناه»، فسأله قارون: وإن كنتَ أنتَ يا موسى؟ قال موسى: وإن كنتُ أنا، فقال قارون: إن بني إسرائيل يزعمون أنك زَنَيْتَ بفلانةٍ المومس، فبهت بنو إسرائيل مما سمعوا، وقال موسى: أين هي المومس؟ فحضرتْ وصلى موسى ركعتين، وسألها: أَنْشُدُكِ بالذي فلق البحر وفجر الماء من الحجر وأنزل التوراة أن تقولي الصدقَ ولا تكذبي! ففَزِعَتِ المُومِسُ مِن هذا القسم العظيم وقالت: لقد أعطاني قارونُ مالاً كثيراً لأتهمَك بالباطل يا رسول الله، فخر موسى ساجدا لله وهو يبكي، وأخذ يدعو على قارون، وقام يبتهل وإذا بالأرض قد انشقت وأخذت تبتلع قارون شيئاً فشيئاً إلى ركبتيه ثم إلى وسطه وهو يصرخ مستغيثاً بموسى، فلم يلتفت إليه، حتى ابتلعته إلى عنقه ثم أطبقت عليه ووارته في بطنها، وكان

مشهداً مخيفاً ومهيباً في بني إسرائيل، ثم خسف الله بداره وماله وكنوزه لَمَّا اعتقدَ بعضُهم أن موسى فعل ذلك ليحوز الإرث من بعده لقرابته ، وهذا شأن بني إسرائيل مع موسى حتى أمام الآيات الباهرات: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[القصص:٨٢].

الدرس الثامن والخمسون

قصة موسى والخضر

وَمِـنْ عَجِيـبِ مَـا تَـلَاهُ رَبُّنَـا — فِي سُـورَةِ الكَهْفِ عَزِيـزِ المَثَلِ
مِنْ شَـأْنِ مُوسَـىٰ وكذا عَبْدٌ سَـمَا — بِعِلْمِهِ فـي مَجْمَعِ البَحْـرِ المَلِي
قِصَّتُـهُ تَحْمِـلُ أَجْلَـىٰ حِكْمَـةٍ — لِـكُلِّ مَـنْ يَرْغَـبُ فـي التَّأَمُّـلِ
فَالخَضِرُ المَخْصُوصُ عِلْماً بَاطِناً — مُخْتَلِفاً عَنْ عِلْمِ مُوسَىٰ المُرْسَلِ
عِلْمُهُمَـا فـي جَنْـبِ عِلْـمِ مَـنْ بَرَا — كَقَطْـرَةٍ مِـنْ بَحْـرِ يَـمٍّ مُمْتَلِـي

يشير الناظم إلى إحدى صور التوجيه الرباني للعباد من خلال مجريات الأحداث والآيات في بني إسرائيل، ففي مجمع من مجامع التذكير التي يقيمها موسى لقومه خطب موسى خطبة فاضت لها العيون ورقت لها القلوب ، فسأله بعضهم : أي الناس أعلمُ؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم لله سبحانه وتعالى ، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، فقال موسى : يا رب فكيف لي به، فقال له جبريل : خذ سمكةً مملحةً في مكتل ، وحيث فقدتها فهناك الرجل.

وقد قصت علينا سورة الكهف القصة بطولها وتتبعها المفسرون بالتحليل والتعليل ، وأهم ما نطرقه هنا :

- من هو الخضر؟ وما حكمة ظهور خبره؟
- إصرار موسى على الالتقاء به مع ما عليه من مسؤوليات البلاغ والتبليغ في بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ

مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾[الكهف:٦٠].

- تسرب الحوت من المكتل ، ونسيان يوشع خبره ، وما جرى لهما من التعب بعد ذلك.
- التقاء موسى بالخضر في موقف المتعلم من المعلم وطلبه المرافقة.
- ربط الخضر المرافقة بالموافقة لا غير ، وعدم الاعتراض مهما عظم الخطأ.
- تأكيد الخضر لموسى أنه غير مؤهل للصبر في اختباره، وتأكيد موسى على ثقته بنفسه من الصبر والطاعة.
- الدروس الثلاثة لم يتمالك موسى فيها الالتزام لما وعد به ، فكان الفراق.
- إجابة الخضر على كافة الإشكالات الطارئة على موسى بدليل مقنع.
- تعليق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على القصة بقوله: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَىٰ لَيْتَهُ صَبَرَ**» ، وفي رواية: «**رَحْمَةُ اللهِ علينا وعلى مُوسَى ، لولا أَنْ عَجِلَ لَرَأَىٰ العَجَبَ ، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَىٰ العَجَبَ**»، وما يقصده صلى الله عليه وآله وسلم من الاطلاع على ما أجراه الله من العلم اللدني على الخضر علم الباطن ، ومن العلم الشرعي علم الظاهر الذي أجراه على موسى عليهم السلام.
- ما أُثر عن وصية الخضر لموسى بقوله: «**كُنْ بَسّاماً ولا تَكُنْ ضَحّاكاً ، ودَعِ اللَّجَاجَةَ ولا تَعْتِبْ على الخَطّائِينَ خَطَايَاهُمْ ، وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ يَا ابْنَ عِمْرَانَ**».
- بقاء يوشع بن نون على الشاطئ ينتظر موسى حتى يئس من عودته عند غروب الشمس كما وعده، ورجع إلى قومه ثم لحقه موسى بعد فراغه من دروس الخضر.

الدرس التاسع والخمسون

موت هارون ثم موت موسى عليهما السلام

قَدْ عَاشَ هَارُونُ وَمُوسَىٰ في المَلا — مَرْحَلَـةَ التِّيـهِ المَدِيـدِ الأَطْـوَلِ
حَتّـىٰ أَتَـىٰ أَمْـرُ الإِلٰـهِ فِيهِـمُ — فـي مَوْتِهِـمْ بِالتِّيـهِ دُونَ المَنْـزِلِ
فَمَـاتَ هَـارُونُ عَلَـىٰ مَـا أَوْرَدُوا — فِي (هُورَ) مَدْفُوناً بِسَفْحٍ مُخْضِلِ
وَبَعْـدَهُ مُوسَـىٰ بِعَـامٍ مَـاتَ فـي — كَثِيبِـهِ الأَحْمَـرِ قُـرْبَ الجَبَـلِ

يشير الناظم إلى أمرين:

الأول: نهاية مرحلة التيه التي عذب الله بها بنو إسرائيل.

الثانية: نهاية حياة هارون وموسى قريباً من الأرض المقدسة .

فقد جاء في الآثار أن الله أوحى إلى موسى أن يذهب هو وأخوه هارون إلى جبل «هور» ، فذهبا إلى هناك ، ومات «هارون» فدفنه موسى وعاد إلى بني إسرائيل يخبرهم بموت هارون، فاتهموا موسى بقتل هارون ، فصلى ودعا الله أن يري بني إسرائيل براءته مما اتهموه ، فعرض الله عليهم «هارون» على سرير بين السماء والأرض وليس عليه دلالة قتله.

وبعد برهة من الزمن أمر الله موسى أن يذهب إلى جبل موسى (جبل نيبو) على مشارف الأرض المقدسة لينظر إليها ولا يدخلها ففعل، وهناك وافاه الأجل على تلك الأكمة ، ودفن في (الكثيب الأحمر) ، وكان ذلك بعد موت هارون بسنة، ومات في هذه المرحلة أكثر بني إسرائيل الذين كتب الله عليهم التيه ، ولم يبق من النقباء الاثني عشر سوى يوشع بن نون وكالب بن يوحنا .

نبوة يوشع عليه السلام

وَسَاسَهُمْ يُوشَعُ مِنْ بَعْدُ كَما قَدْ دَخَلُوا القُدْسَ عَلَىٰ مَا قَدْ تُلِي
مِنْ زَحْفِهِمْ وَسُوءِ أَقْوَالٍ لَهُمْ مُخَالِفِينَ الأَمْرَ أَمْرَ المُرْسَلِ
فَعُذِّبُوا بِالرِّجْزِ وَهْوَ عِلَّةٌ أَوْدَتْ بِهِمْ نَحْوَ الهَلَاكِ المُمْحِلِ
مِنْ بَعْدِهِمْ مَرْحَلَةٌ مَرَّتْ عَلَىٰ مَنْ بُعِثُوا مِنْ لَاحِقٍ وَأَوَّلِ

يشير الناظم إلى حال بني إسرائيل في نهاية مرحلة التيه وموت هارون وموسى، فقد قام بهم من بعد ذلك يوشع بن نون، وهو الذي هيأ الله له دخول بيت المقدس بهم .

ثم أرسل الله بعد موت موسى عليه السلام يوشع بن نون نبيا لقومه ، وأمره بقتال الجبابرة ساكني الشام ، فسار هو ومن معه من قومه إلى «أريحا» عاصمة البلاد ، وقاتل الجبارين وانتصر عليهم وأخرجهم من الشام ، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾[الأعراف:١٣٧].

وبقي منهم من بقي تحت إمرة يوشع بن نون حتى توفاه الله، وبعد موت يوشع بقي أمر بني إسرائيل بيد قضاتهم ٣٥٠ سنة بعد موسى، وقامت بينهم وبين العماليق حروب كان النصر فيها لبني إسرائيل لأنهم التزموا عبادة الله وتوحيده، وفي آخر الأمر عصوا الله وحرفوا الكلم عن مواضعه فسلط الله عليهم جالوت ملك العماليق فقاتلهم وأسر أبناءهم وفرض عليهم الجزية

وأذلهم واستعبدهم (١).

وقد اختبرهم الله أشد الاختبار في أمر دينهم ، حيث أمرهم يوشع عند دخولهم إلى بيت المقدس أن يطأطؤا رؤوسهم ويقولوا (حطة) ، أي: حط ذنوبنا يا رب، فدخلوا يزحفون على أَسْتَاهِهِم، وبدلوا ما أمر الله به واستهزؤوا، كما وصفهم الله بقوله: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:١٦١-١٦٢].

قال أهل التفسير: إن الرجز الذي أنزل عليهم هو الطاعون، ودخل إلى بيت المقدس من لم يخالف قول يوشع ، وبقي بين أظهرهم يحكم بينهم بكتاب الله (التوراة) حتى توفي عن مائة وسبع وعشرين عاماً ، فكانت مسيرة حياته بعد موسى ٢٧عاما.

---

(١) راجع «أحسن القصص» للكبيسي٢١٩-٢٢٠.

الدرس الحادي والستون

ما بعد مرحلة يوشع بن نون عليه السلام

وَبَعْدَهُ كَمْ أَنْبِيَاءٍ أُرْسِلُوا ... جِيلاً بِجِيلٍ في مَدَىٰ التَّحَوُّلِ
كَكَالِبٍ وَبَعْدَهُ حَزْقِيلُ مَنْ ... أَحْيَىٰ رُسُومَ الأَنْبِيَاءِ الأُوَلِ
إِلْيَاسُ ثُمَّ اليَسَعُ الدَّاعِي لَهُمْ ... مِنْ بَعْدِهِ شَمْوِيلُ هَادِي السُّبُلِ

يشير الناظم إلى ما بعد مرحلة يوشع بن نون، فقد بعث الله لهم جملة من الأنبياء ، ومنهم طالب ابن يوحنا يقيم فيهم التوراة، وما جاء في الألواح.

ثم أعقبه نبي الله (حَزْقِيل بن بوزى) على ما ذكره الإمام السيوطي في «الدر المنثور» (١: ٣٣٢).

ولما قُبِض حزقيل أَحْدَثَ بنو إسرائيل في الدين ونصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله ، فبعث الله لهم إلياس بن نَسِي بن فنحاص بن العزار بن هارون بن عمران نبياً ليجدد ما اندرس من أمر التوراة في بني إسرائيل.

وبعد موت (إلياس) بعث الله لهم (اليسع) فكان فيهم ما شاء الله أن يكون ثم قبضه .

وكان فيهم التابوتُ ، فيه بقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون يتوارثونه ، وكان لا يلقاهم عدو فيقدمون التابوت إلا هزم الله ذلك العدو، فلما عَظُمَ إحداثُهم وتركوا عهدَ الله نزل بهم بعض أعدائهم وأخرجوا التابوت معهم ، فسلب منهم وتفرق أمرهم .

فبعث الله نبيه (شمويل) ، وهو الذي كلمه بنو إسرائيل بقولهم: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦]، فسأل شمويل ربه ، فبعث لهم طالوت ملكاً كما سيأتي.

الدرس الثاني والستون

مرحلة نبوة طالوت عليه السلام

مِنْ بَعْدِ أَنْ مَرَّتْ قُرُونٌ عِدَّةٌ ... مِنْ بَعْدِ مَوْتِ اليُوشَعِ المُبَجَّلِ

خَانُوا العُهُودَ وارْتَضُوا دِينَ العِدَا ... وَقَارَفُوا المُنْكَرَ دُونَ خَجَلِ

فَسَلَّطَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ ظَالماً ... جَالُوتَ ذا البَأْسِ الشَّدِيدِ المُوغِلِ

قَتْلاً وَتَشْرِيداً وَإِذْلالاً لَهُمْ ... حَتَّىٰ أَرَادَ اللّٰهُ عَوْدَ الأَمَلِ

فَاخْتَارَ طَالُوتُ نَبِيّاً مَلِكاً ... فَنَازَعُوهُ وَأَتَوْا بِالعِلَلِ

قَالُوا فَقِيرٌ كَيْفَ يَبْنِي مُلْكَهُ ... فِينا بلا نَقْدٍ ولا تَمَوُّلِ

وَالمُلْكُ مُلْكُ اللّٰهِ يَخْتَارُ الَّذي ... يَرْضَاهُ مِنْ أَهْلِ المَقَامِ الأَكْمَلِ

فَاخْتَارَهُ وَزَادَهُ مِنْ فَضْلِهِ ... في العِلْمِ وَالجِسْمِ انْبِسَاطَ المَثَلِ

وَجِيءَ بِالتَّابُوتِ مَحْمُولاً عَلَىٰ ... أَكْتَافِ أَمْلَاكِ العُلا المُؤَثَّلِ

وَعَاهَدُوا طَالُوتَ أَنْ لا يَخْلُدُوا ... لِلْعَجْزِ بَلْ يُحْيُوا جِهَادَ العُذَّلِ

يُقَاتِلُوا جَالُوتَ في أَوْكَارِهِ ... وَلَا يَنَالُوا مِنْ نَمِيرِ الجَدَلِ

وَقَامَتِ الحَرْبُ عَلَىٰ خَوْفٍ سَرَىٰ ... مِنْ جَيْشِ جَالُوتَ المَهُولِ الجَحْفَلِ

لٰكِنَّ دَاوُودَ رَمَىٰ مِقْلَاعَهُ ... بِحَجَرٍ نَحْوَ العَدُوِّ المُقْبِلِ

فَشَجَّ رَأْسَ الكُفْرِ جَالُوتَ الَّذِي ... خَرَّ صَرِيعاً في التُّرَابِ الأَهْيَلِ

وَانْتَصَرَ الدِّينُ بِهٰذا وَسَمَا ... وَانْهَزَمَ الكُفْرُ بِيَوْمٍ فَيْصَلِي

يشير الناظم إلى مرحلة سيدنا طالوت الذي تولى النبوة والملك في بني إسرائيل بعد مرحلة كئيبة على بني إسرائيل تحت حكم جالوت.

مرت مرحلة كئيبة على بني إسرائيل تحت حكم جالوت، وظهر فيهم الفساد والمعاصي وأخذت بهم زمناً طويلاً وانقطعت النبوة، واعتزلهم من بقي من صلحائهم ، حتى ابتعث الله في بعضهم الهمة والغيرة ، فجاؤوا إلى أحد صلحائهم واسمه «صموئيل» وقالوا له: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٦] فوعدهم خيراً.

وبينما هم في مجلسه يوماً دخل عليهم شاب فقير من ذرية يعقوب عليه السلام اسمه شاؤول «طالوت» ، وكان يتردد على صموئيل ويتبرك به فقام صمويل ومسح على رأس الشاب وقال له: أنت مَلِكُ بني إسرائيل، وقال لقومه: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾[البقرة:٢٤٧]، فاستغرب بنو إسرائيل وجادلوه في طالوت: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ﴾[البقرة:٢٤٧]، والأحقية التي يزعمونها كون النبوة كانت في سبط «لاوي» والملك في سبط «يهوذا» ، وطالوت إنما هو من سبط «بنيامين» ابن يعقوب ، وهؤلاء ليس لهم نصيب في النبوة ولا في الملك، ومن أناس فقراء، ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾

قال صموئيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٤٧] ، ولكن بني إسرائيل كعادتهم عادوا إلى التعنّت والشك، فأظهر لهم صموئيل علامة: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾أي: صندوق التوراة الذي كان موسى يقدمه إذا قاتل، وهو صندوق يجمع العديد من من آثار آل موسى وآل هارون﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾، وكان فيه عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة، وكان العمالقة

قد استولوا على هذا التابوت وأخفوه عندهم، فكيف سيأتيهم التابوت وهو عند أعدائهم؟ وبينما هم حائرون في الأمر جاءت به الملائكة ، وقال لهم نبيهم: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٤٨] ، فجاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون ، فكانت هذه علامة واضحة تؤكد اختيار الله طالوت ليكون ملكاً عليهم، فاعترفوا به وأمر الله طالوت أن يتوجه إلى قتال جالوت الكافر ملك العماليق، فأعد طالوت جيشه وخرج في طريقه إلى جالوت على مسافة ثلاثة أيام في أرض مقفرة وحر شديد وقيظ لافح وظمأ مهلك، وفي الطريق أوحى الله إلى طالوت بأنه سيختبر جند طالوت بنهر: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ ، ليعرف صدقهم وولاءهم وإخلاصهم وقال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ أي: فمن شرب منه فلا يصحبني ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ أي: من لم يشرب منه فهو من جنوده الذين يقاتلون معه، إلا من اغترف غرفة من النهر ليَبُلَّ بها عطشه فلا بأس بذلك ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾، ولما وصل طالوت إلى النهر (نهر الأردن) هرع القوم عطاشى يريدون الماء ، فألقوا أنفسهم فيه، وراحوا يشربون ويشربون ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، ولم يلتزم عن الشرب إلا ثلاث مئة وثلاثة عشر جنديا فقط ، صبروا وتجلدوا وأطاعوا قائدهم وملكهم طالوت.

أما المترددون الذين شربوا الماء، فقد بقوا في أماكنهم، ولم يسمح لهم بالذهاب معهم وذهب طالوت بجنوده وتجاوزوا النهر خلف قائدهم طالوت ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ رأوا كثرة عدوهم فاعتراهم الخوف ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ﴾ [البقرة:٢٤٩] فثبتهم طالوت وأوعدهم النصر مع الصبر واصطفوا للقتال: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ دعوا ربهم بثلاث دعوات: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠].

ولما تواجه الجمعان برز جالوت الكافر ودعاهم إلى المبارزة، فلم يبرز إليه أحد من جيش طالوت ، وتقدم داود إلى الصف يستأذن في مواجهة جالوت، فرده طالوت لصغر سنه وقصر قامته مقارنة بقامة جالوت المديدة، ولكن داود أصر كل الإصرار وأظهر العزم ، مما جعل طالوت يأذن له بالمبارزة، وألبسه لَأْمَةَ الحرب، ولم يعرف داود المشي بها فخلعها، وحمل مقلاعه ، وتقدم إلى جالوت بجرأة وثبات، ووضع حجراً مدبباً في مقلاعه وأداره ثلاث دورات وسدده إلى رأس جالوت وهو يقول: (باسم الله المنتقم الجبار)، فخرج المقلاع كالقذيفة من المدفع وانقض على رأس جالوت ففلقه فلقاً، فخر جالوت صريعاً ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[البقرة:٢٥١].

فدب الرعب والفزع في قلوب جيش جالوت ، وفروا مهزومين لا يلوون على شيء ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ورجع جيش طالوت منتصراً واستعادوا أراضيهم وأموالهم المسلوبة ، وفكوا أسراهم من جيش جالوت المهزوم.

الدرس الثالث والستون

مرحلة نبي الله داود

بِقَتْلِهِ جَالُوتَ دَاودُ ارْتَقَىٰ حَالاً وَتَمْكِيناً عَلَىٰ كُلِّ وَلِي
وَزَادَهُ اللّٰهُ بما أَرْسَلَهُ فَضْلاً وَإِكْراماً فَصَارَ المُعْتَلي
وَاجْتَمَعَ المُلْكُ لَهُ وَمِثْلُهَا نُبُوَّةٌ أَكْرِمْ بِهٰذَا المَنْزِلِ
وَفَتَحَ اللّٰهُ عَلَيْهِ حَيْثُمَا وَلَّىٰ بِجَيْشِ الحَقِّ لَمْ يَنْخَذِلِ
وَكَانَ صَواماً وذا زَهادَةٍ وَالطَّيْرُ تَشْدُو بَعْدَهُ كَالجَبَلِ

يشير الناظم إلى نبي الله داود عليه السلام ، وهو الذي أظهر الله شأنه بين أمة بني إسرائيل بعد قتله لجالوت، وتزوج من بنت طالوت، وذاع صيته، واتسعت دائرة محبيه ومناصريه، مما أوغر صدر طالوت وجعله يعمل على تضييق الخناق على داود ، مما جعل داود يخرج من بلده ويذهب إلى قرية «حبرون» بمدينة الخليل هو ورجاله ومن معه، وسمح له ملك تلك الناحية بالإقامة في مملكته، وندم طالوت بعد ذلك ندماً شديداً، وبكى وطلب من ربه المغفرة على ما بدا منه في حق داود.

وأثناء ذلك نشبت حروب بين بعض الممالك المجاورة ومملكة طالوت، وفي هذه الحرب قتل طالوت وبعض رجاله، وبعد مقتل طالوت آل الملك والنبوة لداود: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[البقرة:٢٥١]

وفيه اجتمع الملك والنبوة وقد كانت النبوة في سبط من أسباط بني إسرائيل والملك في سبط آخر، واجتمع عليه أقوام بني إسرائيل، ونصبوه ملكاً

عليهم، وفتح الله على يده الحصون والقرى، واتسع ملكه، وفتح فلسطين كلها ودمشق عاصمة الآراميين وما حولها ، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[ص:٢٠]، ومنحه الله من المنح والعطايا ما منحه وأعطاه، ومنها:

١. آتاه النبوة والزبور ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣].
٢. جعله خليفة في الأرض ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[ص:٢٦].
٣. أعطاه الله حسن الصوت لدى قراءته للزبور، وكانت الطيور تقف صافة في الهواء تردد معه والجبال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص:١٩].
٤. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[سبأ:١٠] فكان يشكل الحديد بيده فيصنع منه ألبسة الحرب، والحرث وغيرها.
٥. كان صواماً قواماً، وذا عبادة وزهاده قال فيه صلى الله عليه وآله وسلم: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود،كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى»، وبقي داود ملكا على حبرون الخليل سبع سنوات ثم ملكا لبني إسرائيل كلهم ثلاثا وثلاثين سنة، ومات داود وعمره مئة عام وأوصى بالخلافة من بعده لولده سليمان.

الدرس الرابع والستون

مرحلة ملك ونبوة سليمان عليه السلام

مِـنْ بَعْـدِ دَاوُودَ أَتَـىٰ وَارِثُـهُ ... ذَاكَ سُـلَيْمَانُ رَفِيـعُ المَنْـزِلِ
قَـدْ نَـالَ مِـنْ مَـوْلَاهُ مَـا أَرَادَهُ ... مُلْـكاً وحُكْماً فـي جَمِيعِ الدُّوَلِ
والرِّيـحُ تَجْـرِي حَيْثُمـا شَـاءَ بِهَـا ... تَحْمِلُـهُ فـي رِحْلَـةِ التَّنَقُّـلِ
وَكُلُّ بَنَّـاءٍ مِـنَ الجِـنِّ مَتَـىٰ ... مَـا طَلَـبَ الخِدْمَـةَ دُونَ مَهَـلِ
بِمَنْطِـقِ الطَّيْـرِ لَـهُ مَعرِفَـةٌ ... وَقِصَّـةُ الهُدْهُـدِ خَيْـرُ مَثَـلِ

يشير الناظم إلى مرحلة ملك ونبوة سيدنا سليمان بن داؤود، وقد ظهر أمره وقدره وعلمه في حياة والده، وإلى ذلك تشير الآيات في حكمه على غنم القوم وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء:٧٩].

وبعد وفاة داؤود آلت إليه وراثة الحكم والنبوة قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ﴾[النمل:١٦]، ومكث مع قومه من بني إسرائيل عشرين سنة وجد فيها من قومه العصيان والأذى والعناد، ما جعله يتوجه إلى مولاه كي يهبه ملكا لم يعطى لأحد من قبله، ولن يوهب لأحد من بعده أراد به توطيد مملكته وإذعان بني إسرائيل للحق فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص:٣٥] فاستجاب الله دعاءه وحقق مطلبه لان لكل نبي دعوه مستجابة فأعطاه الله:

معرفة منطق الطير: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦].

سخر ﴿لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦]

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧﴾ [ص:٣٧]

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [سبأ:١٢] ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾ [النمل:١٧].

وكان هذا الملك الفريد سبباً في إخضاع بني إسرائيل وأمم أخرى ممن حولهم والقرآن يصف قصة بلقيس ملكة اليمن وما كان من خبر الهدهد وما رآه من ملك بلقيس وحمله رسالة سليمان وتفصيل القصة في سورة النمل حتى مجيئها إلى سليمان مؤمنة بالرسالة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النمل:٤٤] .

وعاش سليمان ثلاثاً وخمسين سنة وقد تولى الملك وهو ابن ثلاثة عشر سنه ودام ملكه أربعين سنه وتمتاز مرحلته عن غيره من الأنبياء بما يلي:

١. انفعال الظواهر بأكثر من نموذج وصورة.
٢. اشتراك الجن في رسم شواهد الحياة البشرية من دون حجاب.
٣. مخاطبة الطير والنمل وغيرها من خرق العادة.
٤. توظيف الريح توظيفاً عملياً لازال تفسيره مبهما على العقول إلى اليوم حيث إن البعض يرى أن عصر سليمان كان عصر تطور حضاري مادي فعال وأن الريح التي تحمل بساطة إنما تحمل آلة مصنوعة على غرار الطائرات ومركبات الجو والفضاء وبرز في عصره التصنيع بصورة متميزة والنحت والتشكيل وفن المعمار والبناء .

ومات سليمان عند انقضاء أجله بصورة عجيبة أشارت إليها كتب التفسير عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي

﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: ١٤].

وقد مات سليمان متكئاً على عصاته أمام الجن والإنس الذين يعملون له عملا شاقاً أراد سليمان إنجازه فلما أنجزوه هابوا موقف سليمان حتى أكلت الأرضة منسأته فخر على الأرض ميتاً فتبين الأمر لدى الجن ضعف علمهم وأنهم لو كانوا يعلمون الغيب ، أي علموا موت سليمان في حينه ما لبثوا في العذاب المهين وبهذا علم الإنس أن الجن مثلهم في العلم والإدراك، وليس لهم علم بالغيب ولا يعلم الغيب إلا الله.

الدرس الخامس والستون

مرحلة ما بعد سليمان عليه السلام

مِـنْ بَعْـدِ أَنْ مَـاتَ سُـلَيْمَانُ جَرَىٰ   سُـوءُ اخْتِلَافٍ بَيْنَ بَعْضِ الكُتَلِ
وَاتَّــهَــمُــوا نَـبِـيَّـهُـمْ بِـأَنَّـهُ   يُمَـارِسُ الشِّـرْكَ وَفِعْـلَ الحِيَلِ
وَكَــفَّــرُوهُ عَـلَـنـاً وَاتَّـهَـمُـوا   أَبْنَـاءَهُ وَمَـنْ يَلِـي بِالدَّجَـلِ
وَعَاثَـتِ الجِـنُّ بِهِـمْ حَتّـىٰ غَـدَوْا   يُحَرِّفُـونَ الدِّيـنَ دِيـنَ المُرْسَـلِ
مَـرَّتْ سِـنُونٌ بِهِـمُ فـي سَـكرَةٍ   وَالجَهْلُ يَفْشُـو بَيْنَهُمْ في عَجَلِ
وَأَشْـعِـيَـاءَ قَـتَـلُـوا وَأَرْمِـيـا   وَكَـذَّبُـوا دَعْـوَتَـهُـمْ بِالمَثَلِ

يشير الناظم إلى ما حل ببني إسرائيل بعد سليمان عليه السلام، إذ كان للجن والشياطين جولة وصولة في الحياة تحت ظل سليمان ولما مات سليمان فجأة ولم يفطنوا إلى موته إلا بعد برهة طويلة انطلقوا يفتنون الناس في أمر دين سليمان ورسالته وأخرجوا كتب السحر التي خباها سليمان حتى لا تصل إلى الناس فيفتتنوا، وقالوا بهتانا: إن سليمان كان يمارس السحر ويملك الجن على غير مثال سابق في الأنبياء وزكى هذه التهمة فريق من علماءهم وأنكروا نبوة سليمان وقتلوا بعض اتباعه وأولاده، ومرت بعد هذا فترة طويلة حصل فيها من الانحراف والفساد ما كان سبباً في الحروب والفتن فكانت أول فتنة غمرة قومه بعد وفاته هوية سليمان وانتماءه فهل كان نبياً أم كان ساحراً يملك الشياطين ويسخرهم وقد قويت هذه الإشاعة حتى جعلت علماء بني إسرائيل يتفقون على إخراج سليمان من ديوان الأنبياء.

وعملوا على قتل من بقي من أنصاره وبعض أبنائه وأيدتهم الشياطين على ذلك حيث أشاعوا أن سليمان ساحر وليس نبي وبقيت هذه التهمة في بني إسرائيل سارية على مدى الأجيال حتى نزل القرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مبرأً سليمان من الكفر: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

وخلال هذه الفترة من عهد موت سليمان حتى نبوة نبي الله عزير ظهر الفساد في بني إسرائيل وشاع فيهم الظلم والانحراف والمعاصي وعبد بعض ملوكهم الأصنام واتخذوها أرباباً من دون الله بل وكلما جاء إليهم نبي قتلوه أو سجنوه ومنهم نبي الله أشعياء) ولكنهم قتلوه ثم أرسل الله لهم أرمياء فأخذوه وعذبوه وسجنوه وأثناء ذلك غضب الله عليهم فبعث عليهم (بخت نصر) ملك بابل فشردهم ونكل بهم عقوبة من الله على قتلهم أنبياءه.

الدرس السادس والستون

مرحلة عزير عليه السلام

وَبَعَثَ اللّهُ عُزَيراً مُرْسَلاً عَبْداً حَكِيماً صَادِقاً في المِقْوَلِ
يَدْعُوهُمُ لِلّهِ بَعْدَ أَنْ طَغَوْا وَجَانَبُوا الحَقَّ وَلَمْ يَخْشُوا العَلِي
فآمَنَ البَعْضُ بِهِ وَاتَّبَعُوا مَنْهَجَهُ المَوْصُوفَ بِالتَّبَتُّلِ
قِصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ لَمّا رَأَىٰ قَرْيَةَ لُوطٍ كَالكَثِيبِ الأَهْيَلِ
فَقَالَ أَنّىٰ هٰذِهِ تَحْيَا وَقَدْ صَارَتْ رَمِيماً في العَرَاءِ المُهْمَلِ
فَخَرَّ مِنْ فَوْقِ الحِمَارِ مَيِّتاً وَمَرَّ قَرْنٌ كَامِلٌ في الأَجَلِ
وبَعْدَمَا هَيَّأَ رَبِّي بَعْثَهُ لَمْ يَحْزِرِ الوَقْتَ بِعَدٍّ مُجْمَلِ
فَبَيَّن الحَقُّ لَهُ مَا قَدْ جَرَىٰ مِنْ خَلْقِهِ الحِمَارَ رَأْيَ المُقَلِ
فعَادَ نَحْوَ القَوْمِ في قَرْيَتِهِ يُخْبِرُهُمْ بِمَا جَرَىٰ في الأَزَلِ
فمِنْهُمُ مُصَدِّقٌ بما جَرَىٰ ومِنْهُمُ مَنْ أَنْكَرَ الأَمْرَ الجَلِي
وَمِنْهُمُ المُفْرِطُ في اعْتِقَادِهِ فَقَالَ بَلْ نَجْلُ الإِلٰهِ المُعْتَلِي
فَكَفَرُوا وَأَغْرَقُوا في غَيِّهِمْ حَتّىٰ انْقَضَتْ أَعْمَارُهُمْ في الجَدَلِ

يشير الناظم إلى مرحلة النبي عزير بن شرحيا ، وكان عبداً صالحاً حكيماً على بعض الأقوال، والأصح أنه كان نبياً من أنبياء بني إسرائيل ، وإلى هذا يشير ابن كثير في «البداية والنهاية».

وكان أن مر في طريقه على قرية سدوم من بلاد الأردن، وهي قرية قوم لوط، وقيل: إنها بيت المقدس بعد أن أخربها بخت نصر وقتّل أهلها، وحين تأملها عزير وجد أنها خاوية على عروشها، فتفكر في شأنها وتدبر فتساءل متعجباً وقال: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، ولما أراد الانصراف ركب حماره فانكفأ به الحمار وخَرّا ميتينِ كلاهما «عزيرٌ وحمارُه»، وكان الوقت ضحى.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ واستمر ميتاً مئة عام ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾، فنظر عزيرٌ فرأى جبريل أمامه واقفاً، فسأله جبريل: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ ورأى قرص الشمس يميل نحو الغروب فأضاف ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال له جبريل: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، فنظر عزير إلى طعامه وكان خبزاً وتيناً وإلى شرابه عصير من العنب في زق فوجده على حاله كما أحضره معه، ثم قال له جبريل: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فنظر عزير إلى حماره فرآه هيكلاً عظمياً متفرقاً لأن الزمن قد جرى عليه، فقال له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ فنظر عزير إلى أجزاء العظام تأتلف وتجتمع أمام عينيه حتى تركب بعضها في بعض ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ فرأى عزيرٌ اللحم يظهر بدءاً من الحوافر إلى الأرجل والبطن والظهر والعنق ثم الرأس وقد ألبست العروق والعصب والجلد والشعر ثم استوى الحمار قائماً حياً.

فذهل عزيرٌ وخر ساجداً في مكانه وقال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩]، ثم ركب عزير حماره وحمل زاده وشرابه وعاد إلى بلده التي جاء منها ورآه الناس قادماً من نحو طريق القرية الملعونة (سدوم) ولم يكن أحد يمر بها، فاجتمعوا عليه قائلين: من أنت؟ قال: أنا عزيرٌ، فكذبوه، فما كان عزيرٌ إلا خبراً عن رجل قد مات أو فُقِد، فأخذ يقرأ عليهم من التوراة فاستوثق بعضهم وجاء بالتوراة فوجدوه قد أتى بها صحيحة ولم يخطئ في

حرف منها ، فصدقوه واجتمعوا عليه وظل يدعوهم إلى الله وهم بين مصدق ومكذب ، حتى غلا بعضهم في اعتقاده نحو عزير بعد فشو خبر حياته بعد موته مئة عام فقالوا: (لا يتأتى ذلك لأحد إلا أن يكون ابن الله) تعالى الله عن ذلك ، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠] فسقطوا بهذا الاعتقاد في عين الكفر كما سقط النصارى في قولهم (عيسى ابن الله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الدرس السابع والستون

مرحلة نبي الله زكريا عليه السلام

وَزَكَـرِيّـا مُـرْسَـلٌ مُـصَـدَّقٌ ... مِنْ نَسْلِ دَاوُودَ النَّبِيِّ المُرْسَلِ
قِـصَّـتُـهُ مَـشْـهُـورَةٌ فيما أَتَـىٰ ... مِـنْ آلِ عِمْـرَانَ فدَقِّـقْ مـا تُلِـي
لَمّـا بَنَـىٰ المِحْـرَابَ في مَسْـجِدِهِ ... لِمَرْيَـم وَقَـالَ فِيـهِ فَادْخُلِـي
فَوَجَـدَ الأَرْزَاقَ فـي سُـفْرَتِها ... فَقَـالَ أَنّـىٰ لَـكِ هٰـذا فاجْمِلِـي
فَأَخْبَرَتْـهُ فَدَعَـا مَـوْلَاهُ أَنْ ... يَـرْزُقَـهُ ذُرِّيَّـةَ المُسْتَقْبَلِ

يشير الناظم إلى مرحلة نبوة سيدنا زكريا ﷺ ، وهو كما ذكرته كتب السير زكريا بن لدن من ذرية سليمان بن داوود، وكان نبياً كريماً من أنبياء بني إسرائيل يعمل نجاراً ويكسب رزقه بيده ، وكان عديله وزوج أخت زوجته (عمران بن ماثان) ، وعمران هذا غير عمران أبي موسى عليه السلام فبينهما نحو ألف وثمان مئة سنة، وكان نسب زكريا ونسب عمران يتصل بيهوذا ابن يعقوب ، ومرت السنون ولم تنجب الأختان ذرية حتى تقدم بهن العمر وصارتا عجوزتين وكبر أزواجهما وبلغا من الكبر عتيا، وحُرِمَ كلاهما (زكريا وعمران) من ولدٍ تقرُّ به عيونهما ويرث عنهما رسالة السماء وعلم النبوة، وفي يوم ما رأت حَنّا امرأة عمران بين الظل الظليل طائراً على الشجرة يطعم فراخه فثار حنينها إلى الولد ودعت ربها في نفسها دعاءً خفياً : إن رزقتني ولدا أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سَدَنَتِه ، فتقبل الله دعاءها الخفي، وحَمَلَتْ ما يَسَّر الله لها، ومات زوجها عمران وهي في الحمل ، فدعت «حنا

ربها ليكون المولود ذكرا ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ ﴾ .

والمعلوم أنه لا يقبل في سدانة بيت المقدس إلا الذكور ، إلا مولودتُها فقد قَبِلَها اللهُ ، ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ ﴾، ومريم في لغة قومها العابدة خادمة الرب ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[آل عمران:٣٦].

ووهَبَتْ بِنْتَها لبيت المقدس، وذهبتْ بها في خرقتها للأحبار من أبناء هارون، فتنافس الأحبار في كفالتها لأنها بنت إمامهم عمران ،ولم يقبلوا كفالة زكريا لها، ثم استقر رأيهم على إجراء القرعة لتكون مريم نصيب من خرجت له منهم وكانوا أحباراً ، فذهبوا إلى نهر الأردن وألقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة في الماء... وانتظروا... وإذا بقلم زكريا هو الذي طفا فوق الماء، بينما رسبت بقية الأقلام في أعماق النهر: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ ﴾ [آل عمران:٤٤].

فكانت مريم من نصيب زكريا، وكفلها زكريا لتنمو وتترعرع في بيت زكريا وتحت رعاية خالتها إليصابات زوجة عمران، ولما كبرت وبلغت مبلغ النساء ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران:٣٧] بنى لها زكريا محرابا في المسجد يرقى إليه بسلم ويفتح ويغلق بابه بيده ولا يدخل أحد إليه سواه ، وكان كلما دخل عليها يجد عندها طعامها وشرابها كل يوم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أدرك حينها زكريا عظمةَ الذي مَنَّ اللهُ به على مكفولته، وأن يقينها قد اكتمل بقولها﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٣٧].

وامتلاء قلب زكريا خشوعاً لله وهو يرى هذه البينة المشرقة ، وطمعت نفسه أن يمن الله عليه بذرية طيبة وولد صالح: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران:٣٨] بعد أن بلغ من العمر مئة وعشرين سنة ، وكرر الدعاء والتوسل في السر والخفاء: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم:٣] يعرض على مولاه ما هو

أعلم به منه، ولكن على سبيل التزلف والتذلل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ولم يخب رجاءه في ربه كل مرة ، فهو مستجيب الدعاء: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:٤] ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨] ويبسط آماله في حفظ التركة ووراثة النبوة: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٥-٦].

وعبر عن خوفه على النبوة من جملة أقربائه وعشيرته أن يضيعوا من بعده أمر هذا الدين ، فهو قد عانى من بني إسرائيل ما عاناه الأنبياء من قبله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾، وكانت رغبته الملحة أن يكون ولده من زوجته الصابرة الصالحة «إليصابات» نفسها، ولكن كيف تنجب وهي عجوز قد بلغت ثمان وتسعين سنة وهي عقيم مثل زوجها زكريا: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥] ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ ناداه جبريل وأبلغه البشرى المباركة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران:٣٩] ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧]، فاندهش زكريا وخر يبكي شاكرا حامدا مولاه الذي استجاب دعاءه ، وقد مَنَّ عليه بمطلبه الأسنى ولداً ذكراً ، وميّزه اسماً وأدباً وقِيَماً ومقاماً: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩].

وشعر زكريا بثقل الأمر على قومه ، وأن مثل هذا الأمر مخالفٌ عندهم لمألوفهم ومعتادهم فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ اجعل لي علامةً ومؤشراً يشعرهم بحصول أمر غير معتاد ولا مألوف ولامعقول عندهم: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠] ، واجعل كلامك وقولك تسبيحاً وذكراً لله ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١] ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن

سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم:١١] .

ووُلد يَحيى ، ووضعتْ (اليصبات) زوجة نبي الله زكريا مولودها الأول بعد عمر يناهز ثمان وتسعين سنة وهو مولودها الوحيد ، ولم يكن هذا الاسم معروفا عند بني إسرائيل ، وعاش تحت كنف والده وأمه آية من آيات الله وعلامة يردد خبرها الأجيال والأمم.

وقتل زكريا على يد جند الطاغية (هيردوس) لما أخفى عنهم مكان ولده يحيى عليه السلام .

الدرس الثامن والستون

مرحلة نبوة يحيى بن زكريا عليه السلام

قِصَّةُ يَحْيَى قَدْ أَتَتْ بِنَصِّها   بِشَارةً وَمَوْلِداً في المَنْزِلِ
مَبْسُوطَةً في كُتُبِ الآثَارِ إِنْ   أَرَدْتَ أَخْبَارَ الزَّمَانِ الأَوَّلِ
قَدْ عَاشَ في عَهْدِ طُغَاةٍ حَكَمُوا   وَقَرَّرُوا مَقْتَلَهُ بِالحِيَلِ

يشير الناظم إلى مرحلة يحيى ش ، وكان ميلاده في عهد ملك طاغية جبار أخبره المنجمون والعرَّافون عن ظهور نجم في السماء يدل على ميلاد طفل يكون له شأن عظيم ، يكون سيد أهل الأرض، ويشفي كل سقيم ويبرئ كل مريض ثم يرفعه الله إلى السماء ، ذهل هيرودس وارتاع لهذا الخبر وبث العيون لمعرفة مكان الطفل من أطراف مملكته ،وما كان هذا الطفل إلا عيسى بن مريم ي الذي ولد في العام نفسه الذي ولد فيه يحيى بن زكريا ي في بيت لحم ، ولما بلغ خبر الملك إلى زكريا خاف على ولده يحيى، فحمله وأمه سراً إلى الصحراء وأخفاهما في مكان مأمون ، وعاد إلى قومه مطمئناً يباشر معهم العبادة في المعبد.

كما رأى في الوقت نفسه يوسف النجار ابن عم مريم رؤيا تأمره بأن يأخذ مريم وابنها عيسى إلى مصر هرباً من ذلك الملك الظالم، وأثناء وجود زكريا في المعبد مع جملة من أتباعه دخل المعبد كوكبة من الجنود المدججين بالسلاح، وقبضوا على زكريا يسألونه: أين ولدك يحيى؟ فكان جوابه : لا أعلم عنه مكانا فلم يصدقوه وانهالوا عليه ضرباً وركلاً، وأخذوا يعذبونه بقسوة ووحشية، ولما لم يفصح عن مكان ولده أمر الملك بقتله فقتلوه وبقي

يحيى وأمه في الصحراء أربع سنوات تحوطهما رعاية الله وعنايته ، وتوفيت أم يحيى «إليصابات» وعمره ست سنوات، فبقي وحيداً في الصحراء بين البادية وتفرغ لعبادة ربه حتى كبر وترعرع وألهمه الله الحكمة وأوحى إليه بالنبوة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره.

وصار يحيى نبياً يدعو الناس في تلك البادية إلى الله ويجتمع عليه الناس فيعظهم ويعلمهم ويرشدهم إلى طريق الصواب، فأمرهم بالصلاة والصدقة والبر والأعمال الصالحة والتوبة إلى الله، واشتهر يحيى بين الناس بالصلاح والتقوى فقصده بنو إسرائيل لأخذ النصيحة والتوجيه ومعرفة أحكام الله وتوحيده، وصارت رحلة بني إسرائيل إلى يحيى وهو في خلائه أمراً معروفاً.

وفي هذه الأثناء مات الملك هيرودس فعاد يحيى إلى بيت المقدس يعبد الله ويدعو إليه، وتولى الحكم بعد موت الطاغية «هيرودس» ابنه هيرودس الأصغر، وكان طائشاً فاجراً لا يرعى حرمة ولا يحفظ عهداً، فامتدت عينه إلى زوجة أخيه «فيليبس» وعشقها وتوله بها ، وكانت بينه وبينها علاقات آثمة كانت سبباً في شيوع خبر حبه وعشقه.

وقامت بسبب ذلك حرب ضروس بين الأخوين وانتهت بانتصار «هيرودس الأصغر» الذي ألقى بأخيه في غياهب السجن، ولما رأى الملك الفاجر كثرة ما يقوله الناس ويتحدثون به عن علاقاته الآثمة قرر أن يتزوج من زوجة أخيه الخائنة «هيروديتا»، وكانت لا تزال على ذمة أخيه المسجون، فأراد الملك أن يضفي على قراره مظهراً شرعياً، ولابد له من راهب يقوم بذلك، فتوجه بطيشه ومكره إلى يحيى، وأرسل له الرسل طالباً منه الفتوى المستحيلة فيما هو بشأنه من أمر الزواج ، فأبى يحيى إباءً شديداً ورفض أن يوافق الملك رأيه وقراره، وما كان من الملك إلا أن هدده وتوعده حتى أيس منه فأخذه ورماه في السجن، وبقي يحيى في السجن عشرة أشهر وعاود الملك إغرائه بالفتوى مقابل الإطلاق لسراحه فأبى يحيى متمسكاً بموقفه الشرعي، فما

كان من الملك إلا أن تآمر مع الزوجة الخائنة على قتل زوجها في سجنه ليخلو لهما الجو فيتزوجا من غير حاجة إلى الفتوى.

وسرعان ما نفذ «هيرودس الأصغر» ما أراده من غدر في أخيه فقتله في سجنه، ثم أمر بإحضار يحيى فأخبره بموت أخيه في سجنه، وطلب منه الموافقة على أمر الزواج فلم يقبل يحيى منه طلبه، وتدخلت هيروديتا وراحت تتوسل إليه لكي يوافق على زواجهما الباطل ، فأبى وظل صامداً ثابتاً على موقفه وقال للملك: (لا تكون لك هيروديتا أبداً، وليس الشر يعالج بالشر، وليس الذنب يمحى بالذنب).

وغضب الملك وعشيقته على يحيى وأعادوه إلى السجن في الحال، وخلال أيام أعدُّوا العدة لقتله والخلاص منه، وكان ذلك في يوم رقص ولعب وخمر ألزمت إحدى نساء القصر الملك أن يكون مهرها رأس يحيى، فأمر الحراس وهو مخمور أن يأتوا برأس يحيى في طبق من نحاس وفعل الحراسة ذلك وجاؤوا برأس يحيى يقطر دما، ووضعوه بين يدي الملك وفجأة طار الرأس من الطبق واختفى من بين أعين الجميع، وكان أن رفع الله الرأس مع الروح إلى برزخها في ملكوت عالم السماء الثانية: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:١٥].

الدرس التاسع والستون

مرحلة الصديقة مريم العذراء وميلاد عيسى عليهما السلام

وَمَرْيَمٌ صِدِّيقَةٌ قَدْ وُلِدَتْ ... كَمَا مَضَىٰ في الخَبَرِ المُفَصَّلِ
بِدَعْوَةٍ مِنْ أُمِّهَا لِرَبِّهَا ... مَنْذُورَةً لِبَيْتِهِ المُفَضَّلِ
تَرَعْرَعَتْ في شَرَفٍ وَعِزَّةٍ ... وَاخْتَارَهَا اللّٰهُ لِأَمْرٍ جَلَلِ
إِذْ جَاءَهَا جِبْرِيلُ في عُزْلَتِهَا ... مُبَشِّراً بِحَمْلِهَا المُؤَمَّلِ
فَحَمَلَتْ بِنَفْخَةٍ في رَوعِهَا ... وَوَلَدَتْ عِيسَىٰ بِخَيْرٍ مُنْزَلِ
وَقَالَ في المَهْدِ كَلاماً مُعْجِزاً ... أَفْحَمَ أَهْلُ الإِفْكِ وَالتَّمَحُّلِ

يشير الناظم إلى مريم الصديقة عليها السلام وقصتها المشهورة والمذكورة في بعض سور القرآن ، ومنها سورة مريم التي سميت باسمها.

وكانت مريم عليها السلام فتاة عذراء قديسة تخدم بيت المقدس ، وكان معها ابن عمها يوسف بن يعقوب بن ماثان، وكان يوسف يعمل نجاراً فيأكل ويتصدق من عمل يده ، وكان قديساً مثلها يخدم بيت المقدس، وكانت مريم عليها السلام يأتيها رزقها من عند الله، وكانت الملائكة تخاطبها وتحثها على الاجتهاد في العبادة والتقى ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٤٢].

وفي أحد الأيام تنحت مريم واعتزلت وصعدت إلى ربوة شرقي بيت المقدس ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ [مريم:١٦]، وفي عزلتها اتخذت لها حجاباً يعزلها عن الناس ، وبينما هي يوماً تتأمل وتتعبد إذ لمحت شاباً

وسيماً يتجه إليها قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧]، فذهلت مريم لهذه المفاجأة وأوجست من الشاب خيفة ففزعت و﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٨]، وكان ذلك الشاب هو جبريل عليه السلام أقبل عليها و﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩]، فأنكرت مريم ما سمعت فـ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠] ، فرد عليها جبريل مطمئناً ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم:٢١] ، فامتلأت مريم خوفاً وشعرت أنها مقبلة على أيام عصيبة مع قومها لا تعلم مداها وأثرها ، فبشرها جبريل بأن هذا الغلام الزكي ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٤٥-٤٦] ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٤٨]، فما كان من مريم إلا أن اقتنعت واستسلمت لرب العالمين (فنفخ جبريل في جيب درعها – أي: قميصها – فدخلت النفخة إلى جوفها ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢]، فحملت مريم من ساعتها، ولم تدم مدة حملها أكثر من ساعة واحدة كما شاء الله ذلك ، فأحست مريم بالجنين يتحرك في بطنها ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٣]، حيث ألجأها الطلقُ إلى الاستناد إلى النخلة اليابسة، وكانت آلام المخاض تعتريها وتؤلمها ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣].

وولدت مريم بمولودها ورأت جذع النخلة اليابس تدب فيه الحياة بإذن الله، وظهرت عين ماء عذب بجواره لما ضرب جبريل الأرض برجله فجرى جدولاً ، وسمعت مريم النداء الذي أنساها آلامها وحُزنها وخَوفها وقد سمعت وليدها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾

[مريم:٢٤].

واختلف المفسرون في المخاطب لمريم أهو وليدها أم جبريل؟ حيث قال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ [مريم:٢٥-٢٦] فهزت مريم الجذع ، وإذا بالرطب يتساقط من السعف المخضر بعد يبوسته ، ولازال القلق والخوف من قومها يضرب في أعماقها، فسمعت النداء ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم:٢٦] ، واطمأنت مريم إلى ما سمعت وما رأت، وآنست بما طعمت وشربت وقرت عينها وطابت نفسها،ولفت وليدها في جيب قميص لها وأخذت ترضعه راضية مستبشرة، ورجعت مريم نحو قومها ومعها طفلها تحمله بين يديها ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾ [مريم:٢٧]، ورأوها قومها قادمة به نحوهم ، ونظروا مشهداً لا يصدق ، فتنادى الناس بالخبر المذهل وهاج اليهود وماجوا وأقبلوا على مريم غاضبين مستنكرين وقائلين: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ [مريم:٢٧].

لقد اتهموها قبل أن يسألوها عن حقيقة الأمر، واعتبروها فيما تبادر لهم أنه ثمرة زنا، بل قيل: إن امرأة منهم مدت يدها لتضرب مريم فشلت يدها، واندفع رجل يصيح في وجه مريم فأخرس الله لسانه، وهنا وجم الجميع وتراجعوا إلى الوراء وأخذوا يخاطبونها برفق، وقالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم:٢٨] ، لكن مريم لم تجب عليهم ولم تلفظ بكلمة واحدة ووضعت الطفل بينهم وأشارت إليه وهي صامتة: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم:٢٩]، فنطق الوليد مشيرا بسبابته اليمنى ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:٣٠-٣٣].

الدرس السبعون

مرحلة النشأة لعيسى عليه السلام وظهور الحجة البالغة بنبوته

لَمَّـا أَرَادَ اللّٰـهُ إِظْهَـارَ الفَتـىٰ		عِيسـىٰ بَـدَا يَنْمُـو نُمُـوَّ المُثُـلِ
فحَمَلَتْهُ نَـحْـوَ مِـصْـرَ أُمُّـهُ		خَوْفـاً عَلَيْـهِ مِـنْ عُيُـونِ الدَّجَلِ
بِضْـعَ سِـنِينَ ثُـمَّ عَـادَتْ بَعْدَمـا		مَـاتَ المَلِيـكُ بِحُلُـولِ الأَجَـلِ
وَحَـانَ حِيـنُ الاِشْـتِهَارِ فَغَـدَوْا		في المَقْـدِسِ المَيْمُونِ خَيْرَ مَثَلِ
تَجْـرِي لَـهُ الآيَـاتُ وَهْـيَ حُجَّـةٌ		يُشْـفِي وَيُحْيِـي مَيِّتـاً فـي عَجَلِ
مَرْحَلَـةُ المَسِيحِ عِيسَـىٰ حُجَّـةٌ		لِلنَّقْـلِ فَـوْقَ العَقْـلِ وَالتَّعَقُّـلِ
وَآيَـةٌ تَحْكِـي مِثـالاً مُفْـرَداً		في خَلْقِ عِيسىٰ وَهْوَ مِثْلُ الأَوَّلِ
أَرْسَـلَهُ اللّٰـهُ إِلـىٰ طَائِفَـةٍ		مِـنَ النَّصَـارىٰ داعيـاً كَالرُّسُـلِ
وَجَـاءَهُ الإِنْجِيـلُ وَحْيـاً مُنْـزلاً		مُحْتَوِيـاً أَسْـبَابَ عَيْـشٍ أَفْضَـلِ
فَسَـارَ بِالعَـدْلِ وَبِالرِّفْـقِ كمـا		قَـدْ فَاقَ في الأَخْـلَاقِ وَالتَّحَمُّلِ
وَكَـمْ لَـهُ مِـن آيَـةٍ مُعْجِـزَةٍ		في الخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَالتَّشَـكُّلِ
وَابْتُلِيَـتْ أُمَّتُـهُ مِـنْ بَعْـدِهِ		بِفَلْسَـفَاتِ العَقْـلِ وَالتَّعَلُّـلِ
أَصَابَهُـمْ دَاءُ الَّذِيـنَ سَـبَقُوا		مَـنْ أَلَّهُـوا العَقْـلَ عَلَـىٰ المُنَزَّلِ
وَفَسَّـرُوا مَـا فَسَّـرُوا مِـنْ دَفْعِـهِ		بِقَتْلِـهِ وَصَلْبِـهِ المُحْتَمَـلِ
تَضَافَـرَ اليَهُـودُ فـي تَبْرِيـرِ مـا		قَـالَ النَّصَـارَىٰ مِنْ مَقَـالٍ مُبْطِلِ

وَاتَّحَدُوا فـي الكُفْرِ حَتّىٰ رَسَمُوا   مَنْهَـجَ إِفْـكٍ عَالَمِـيٍّ مِفْصَلِـي
وَاتَّخَـذُوا لِلّٰـهِ جُـزْءاً مِثْلَمـا   قَـالَ اليَهُودُ فـي عُزَيْرَ المُرْسَـلِ
وَوَصَفُـوا مَرْيَـمَ وَصْفـاً مُفْرِطـاً   وَحَرَّفُـوا الإِنْجِيـلَ دُونَ وَجَـلِ
أَدَانَـــهُـــمْ قُـــرْآنُ رَبّـــي عَلَناً   وَأَشْهَرَ الإِنْكَارَ في النَّصِّ الجَلِي
وَمَـا لَهُـمْ في قَوْلِهِـمْ مِـنْ حُجّـةٍ   وَمَـا لَهُـمْ إلا ظُنُـونُ الحِيَـلِ
مَطِيَّـةٌ لِكُفْـرِ إِبْلِيـسَ الَّـذِي   أَشَـاعَهُ فـي العالَـمِ المُبْتَـذَلِ
لا نَرْتَضِـي الكُفْـرَ وَلا نَدْعُـو لَـهُ   وَالكَافِـرُونَ خُدِعُـوا بِالدَّغَـلِ
لَابُـدّ مِـنْ تَحْرِيرِهِـمْ مِـنْ كُفْرِهِمْ   لِيَرْجِعُـوا لِفِطْـرَةِ الـرَّبِّ العَلِـي
وَهٰـــذِهِ مُـهِـمَّـةٌ تَـأْتِـي غَـداً   بِأَمْـرِ رَبّـي بِالمَسِـيحِ المُنْـزَلِ
يُوَحِّـدُ العَالَـمَ مِـنْ أَطْرَافِـهِ   بِدِيـنِ طٰـهَ السَّـيِّدِ المُبَجَّـلِ
فَهْـوَ الَّـذِي قَـدْ جَاءَهُـمْ مُبَشِّـراً   بِـهِ رَسُـولاً بَعْـدَهُ فـي الرُّسُـلِ

يشير الناظم إلى خوف مريم على ابنها من ملك اليهود الذي أخبره الكهان عن مولد طفل في (بيت لحم) سيكون له شأن عظيم، وأراد الملك قتله فبلغ الخبر إلى مريم فحملته سراً وخرجت به ومعها ابن عمها يوسف النجار، ومكثوا بمصر بضع سنين كانت مريم فيها معتمدةً على كسب يدها تغزل الكتان وتلتقط ما تركه الحصادون من السنابل.

وبعد موت الملك الطاغية عادت مريم بعيسى ومعها يوسف النجار ونزلوا في نواحي الخليل بقرية الناصرية، وفي هذه القرية طابت الإقامة والمكوث.

وفي هذه المرحلة كان غالب اليهود قد فسقوا وحرفوا كتبهم وتهالكوا على الحطام وحرفوا التوراة: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

وفي إحدى زيارات مريم بعيسى إلى (بيت المقدس) فقدت ابنها عيسى فجأة، وفتشت عنه فلم تجده، فذهب يوسف النجار إلى بيت الناصرة معتقدا ذهابه إليها، لكنه لم يجد له خبرا فعاد أدراجه إلى (بيت المقدس) وأخذا التفتيش والسؤال عنه حتى لقياه يجلس وسط جماعة من الأحبار في الهيكل ببيت المقدس، وكان الأحبار يسألونه فيجيبهم جواباً يملأ العقول إعجابا يحدثهم عن التوراة كما أنزلت من عند الله مفنِّداً تحريفهم وكذبهم، فأخذته من بينهم وأعادته معها إلى الناصرة ترعاه خير رعاية وتنشئه على حقيقة التوحيد وسلامة الديانة حتى جاوز العشرين عاماً.

فكان يخرج إلى محافل بني إسرائيل يناقش العلماء بقوة وصدق وإقناع وكشف للناس، لما أعطاه الله من العلم مواقع التحريف للتوراة وأحكامها، فالتف الناس حوله وظهر أمره وتهيأ للرسالة.

انتقل عيسى مع أمه مريم إلى (بيت المقدس) واشتهر أمره وأعلن عن نبوته، وأظهر الله على يده المعجزات كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران:٤٩].

فآمن بعيسى من آمن وصدق من صدق واتبعه الجم الغفير ، وكانت أمه مريم خير عون له على دعوة الحق بين النساء، وشفى الله تعالى العدد الكثير ممن كان أعمى أو أكمه أو أبرص ، فتصح أجسامهم ويطيب عيشهم.

ولما رأى أحبار اليهود انصراف الناس عنهم وإقبالهم على المسيح عيسى ابن مريم امتلؤوا حقداً وغيظاً وكمداً ، وراحوا يكيدون له ويدبرون المكر السيء للنيل منه ، ووشوا به عند ملك اليهود للإضرار به، فنصره الله عليهم، وقام الحواريون ـ وهم خُلَّصُ أتباعه ـ بمناصرته ونصره ، وقد وصفهم الله

تعالى في كتابه بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣].

وأجرى الله تعالى في هذه المدة التي عاشها مع بني إسرائيل المعجزات العديدة ، ومنها نزول المائدة من السماء ، وهي التي خالفوا فيها أمر الله بعد نزولها عليهم .

وكان عيسى عليه السلام مثالا للزهد والعفة والصدق والإخلاص ، ولا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، خلاف على ما كان عليه أحبار اليهود .

وأخذ اليهود في آخر المطاف في الوشاية بعيسى عند ملك الشام (بيلاطس) ، وكان هذا الملك طاغية فتاكاً بطّاشاً ، فقالوا له: إن عيسى يفسد الناس ويفتن الرعية ويصرف ولاءهم عن الملك ، فما كان من الملك إلا أن أمر جنوده بالقبض على عيسى بن مريم عليه السلام.

وفي ذلك الحين الذي دخل عليه أولئك القوم دخل معهم جملةٌ من اليهود وقد بَيَّتُوا قتل عيسى عليه السلام في لحظة القبض عليه فأجرى الله المعجزة في تلك الساعة وألقى شَبَهَهُ على أحد حوارييه، ورفع الله عيسى إليه كما قال تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥].

وأخذ القوم ذلك الحواري الذي أُلْقِي عليه الشَّبَه فصلبوه، وهم يظنونه عيسى، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء:١٥٧].

وكان عمر عيسى يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة ، وقيل ثلاثاً وثلاثين سنةً، وفي رواية أنها كانت ليلة الحادي والعشرين من رمضان.

وقد جعل الله رفعه إليه حكمةً عظمى يظهر أثرها في آخر الزمان حين ينزل مرة أخرى إلى العالم ، ليقتل الدجال ويوحد العالم تحت راية الإسلام.

الدرس الحادي والسبعون

مرحلة ما بين عيسى وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وَبَعْدَ رَفْعِ اللّهِ عِيسَىٰ لِلسَّمَا أُصِيبَتِ الأَتْبَاعُ بِالتَّبَدُّلِ
فَأَفْسَدُوا وَحَرَّفُوا شِرْعَتَهُمْ وَعَطَّلُوا النُّصُوصَ بِالتَّمَحُّلِ
وَمَرَّتِ السُّنُونُ تُبْدِي عَجَباً مِمّا جَرىٰ مِنْ مَلْحَظِ التَّحَوُّلِ
كَمِثْلِ أَهْلِ الكَهْفِ في قِصَّتِهِمْ وما جَرَى من ابتلاءٍ جَلَلِ

يشير الناظم إلى ما حل ببني إسرائيل بعد تآمرهم الدنيء على نبي الله عيسى عليه السلام، وأن أكبتهم الله بأن رفعه إليه كما جاء في القرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

واختلف شأنهم في أمره، فمنهم من آمن برفعه، وهم المؤمنون حقا، ومنهم من اعتقد حقيقة صلبه وابتدعوا الصليب المعبود إلى اليوم رمزاً لذلك.

وهكذا ظل بنو إسرائيل من بعد عيسى عليه السلام على حالهم من الغي والفساد جيلاً بعد جيل حتى أظهر الله لهم ولغيرهم ممن انتشروا في أفجاج الأرض بعض الآيات والعلامات تحذيراً وتنبيهاً، ومنها كما أشار الناظم قصة أهل الكهف وقصة أصاب الأخدود.

الدرس الثاني والسبعون

قصة أهل الكهف

قِصَّةُ أَهْلِ الكَهْفِ خَيْرُ قِصَّةٍ ... فـي سُورَةٍ بِإِسْمِهِمْ ذِكْراً تُلي
مِنْ بَعْدِ عِيسىٰ التَزَمُوا شَرْعَهُمُ ... في عَهْدِ سُلْطَانٍ شَدِيدِ الدَّجَلِ
هَدَّدَهُمْ بالقتلِ إِنْ لم يكفروا ... بِدِينِهِمْ حتى غَدَوْا في وَجَلِ
فبَحَثُوا عن مَلْجَأٍ يَكْلَؤُهُمْ ... فكان كهفاً نائياً في الجَبَلِ
وضَرَبَ اللّٰهُ علىٰ آذانِهِمْ ... فاستغرَقُوا السِّنِينَ في التَّمَلْمُلِ
واسْتَيْقَظُوا مِنْ بَعْدُ في عَهْدٍ بِهِ ... سُلْطانُ عَدْلٍ قَائِمٍ بالمُثُلِ
فَكَانَ ما كان وكانوا عِبْرَةً ... لِكُلِّ جِيلٍ في الزَّمانِ المَرْحَلِي

كانت هناك في آسيا الصغرى مدينة من بلاد الروم تسمى أفسوس، وكان ملكها كافرا جباراً يدعى (قيانوس)[1] يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، وكان في المدينة سبعة فتية يؤمنون بالله على دين موسى وعيسى يكتمون أمرهم ويخفون إيمانهم، لكن خبرهم وصل إلى الملك ، فأرسل إليهم جنوده وقبض عليهم، وجيء بهم إليه فحاورهم وناقشهم ولكنهم أجابوه بغير ما أراد وأعلنوا عقيدتهم ودينهم الحق، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٤]، فأمهلهم الملك على أن يراجعوا أنفسهم ويثوبوا

(١) كشفت الآثار أن كهف السبعة يقع في وادي الرجيب (الرقيم) في الأردن وليس في تركيا ، والله أعلم.

إلى رشدهم، فخرجوا من عنده واجتمعوا يتشاورون ، فاتفقوا على أن يعتزلوا قومهم ويفروا بدينهم ويلتجؤوا إلى كهف يعرفونه في بعض الجبال ، كما وصف ذلك الأمر القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ﴾ [الكهف:١٦].

فتسللوا خفية، وحملوا متاعهم وما معهم من مال في ساعة من الليل وتوجهوا نحو ذلك الجبل، وفي الطريق التقوا براعٍ يسوق غنماً ومعه كلب، فتبعهم الكلب وترك راعيه، فلما وصلوا إلى الكهف أخذوا بعضاً من الراحة بعد عناء السير فألقى الله عليهم النوم الثقيل في الكهف: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ [الكهف:١١]، فناموا ثلاثمئة سنة وتسع سنوات كاملة: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف:٢٥]، وكانت هذه التسع السنوات هي الفرق بين السنوات الهجرية والميلادية فنومهم بالميلادي ثلاثمئة سنة بلا زيادة ولا نقص، وخلال هذه السنوات الطويلة أجرى الله لهم من أسباب الحفظ ما أشارت إليه الآيات الكريمات: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، فلا يصيبهم حر أشعتها المباشرة ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي: في هذا المتسع ـ أي: الكهف ـ نائمين مطمئنين ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: من دلائل قدرته الباهرة ، وكانوا يتقلبون في منامهم حتى لا تأكل الأرض أجسامهم ، كأنما هم أيقاظ وهم رقود قال تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨] أي: كلبهم على الباب يحرسهم فأصابه ما أصابهم: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ [الكهف:١٨] أي: ألبسهم الله هيبة تجعل رؤيتهم تثير الرعب والخوف.

وفي لحظة مقدرة بعد السنوات الطويلة أيقظهم الله من رقدتهم وهم في غاية الاندهاش من عمق نومتهم ، وأخذ أحدهم يسألهم كم لبثتم فأجابوه

قائلين حسب تقديرهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩] وما دروا بطول السنوات التي ناموها ، فقال قائلهم : الله أعلم بما لبثتم، وكان الجوع قد بلغ بهم مبلغاً ، فاتفقوا على إرسال أحدهم إلى سوق المدينة ليشتري لهم طعاماً: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف:١٩]، فأرسلوا أصغرهم وكان اسمه (يمليخا) وكان خازن مالهم ، وأوصوه بإخفاء نفسه عن عيون الرقباء: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ وعادت إليهم ذكريات تهديد الحاكم وبطشه فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٢٠].

وخرج (يمليخا) نحو المدينة دهشاً مما يرى من تقلب أحوال بنيانها واندثار معالمها التي كان يعرفها، وشعر الناس بغربته عنهم فسألوه فأخبرهم أنه ليس غريباً ولكنه يبحث عن طعام فدلوه على مكان الطعام فأخرج (يمليخا) دراهمه وعليها صورة الملك (دقيانوس) وتاريخ صك الدراهم فاندهش البائع وظنه حصل على كنز قديم ، فاجتمع عليه الناس يتساءلون من أنت ومن أين جئت، فأخبرهم بخبر أصحابه وخوفهم من بطش الملك بهم واختباؤهم في الكهف، وكان أهل أفسوس قد تناقلوا خبر الفتية الذين اختفوا أيام (دقيانوس) فعرفوا أنهم منهم ، فانزعج (يمليخا) وأخذ يستعجل العود إلى أصحابه فأخبره الناس عن موت الملك دقيانوس وعن اختفائهم ثلاثمئة سنة وزيادة ، وبشروه أن الملك الآن ملك مؤمن بالله، وانتشر خبر أهل الكهف في تلك الساعة حتى بلغ إلى الملك فأمر بإحضاره إليه ، فأحضر فسمع منه قصتهم وطلب منه أن يدله على كهف أصحابه فذهب مع جماعة من وجهاء القوم حتى دخلوا الكهف ورأوا الفتية وحادثوهم كما ورد في بعض الآثار وأتى الملك إليهم وزارهم في أدب وخشوع وطلب دعاءهم فدعوا له وألقى الله عليهم النوم مرة أخرى فأخذوا مضاجعهم وناموا:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف:٢١].

وكانت هذه الآية بالنسبة لأولئك القوم دليلاً وبرهاناً على صحة البعث وأن القيامة لا شك فيها، وانتظر القوم صحوتهم حتى أيسوا من ذلك ، فاختلفوا في أمرهم ، وقال بعضهم: ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف:٢١] ، واجتمع الرأي بعدها على أن يتخذوا مسجدا على باب الكهف يصلون فيه ويتذكرون نعمة الله التي أجراها لهم بظهور هذه الآية العظيمة.

وظل هذا المسجد والمكان مجهولاً ردحاً من الزمان حتى ادعى أناس عندهم كهف أنه كهفهم ؛ إلا أن علماء الآثار أخيرا في المملكة الأردنية الهاشمية واصلوا البحث في تلك المناطق التي تشابهت فيها أسماء الأماكن كالرقيم والرجيب وعلامات ازورار الشمس وترجح وجودهم بذلك المكان.

وقد اجتمع في قصة أهل الكهف فوائد عديدة لا يستغني عنها طالب علم ولا باحث عن فائدة منها:

١. أن القصة جرت في الفترة الزمنية بين عهد عيسى وعهد بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، مما يؤكد أن القرآن هو أول كتاب سماوي نقل للبشرية قصتهم.
٢. أن العلم بعلامات الساعة ليس مختصاً بأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما تدخل في هذا العلم أخبار الأمم السالفة كما هي نصوص ديننا، وتعرف في فقه التحولات بالقراءة الاستقرائية.
٣. مصدر توثيق قصة أهل الكهف منحصر في سورة الكهف وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث إن كافة الروايات المنقولة عن بني إسرائيل كتبت في مرحلة تحريفهم الكتب السماوية ، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الكهف:١٣]، فليس من

حق يعتمد عليه غير ما أشار الله سبحانه وتعالى.

٤. تعدد الآيات الخاصة بهم خلال وجودهم بالكهف، مثل بقاء الكلب معهم وذكره في القرآن بذكرهم، وزورار الشمس عن كهفهم صباحاً ومساء : ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾، ومثل تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال في رقدتهم الطويلة حتى لا تأكل الأرض أجسادهم.

٥. ربط القرآن بين ظهورهم وابتعاثهم وبين علم الساعة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف:٢١].

٦. تعليق القرآن مسألة الجزم في عدد أهل الكهف ، واعتبار أن الاختلاف هو من سمة الإنسان ، وأن حقيقة عددهم عند الله ، وهو الذي أخفى تعدادهم لحكمته: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف:٢٢].

٧. ربط الإفصاح عن مدة المكث لهم بعلم الغيب: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [الكهف:٢٦].

الدرس الثالث والسبعون

قصة أصحاب الأخدود

وَمِـنْ عَجِيبِ ما جَـرىٰ فيما مضىٰ مِـنْ بَعْدِ عِيسـىٰ قِصَّـةُ المُعْتَقَلِ
في عَهْـدِ ذِي نَوّاسَ ذاك الحِمْيَرِي مَـنْ حَفَـرَ الأُخـدُودَ دُونَ وَجَلِ
وَفِيـهِ أَلْقـىٰ كُلَّ مَـنْ خَالَفَـهُ مِـنْ وَلَـدٍ وَامْـرَأَةٍ وَرَجُـلِ
وَامْـرَأَةً تَقَاعَسَتْ بِطِفْلِها خَـوْفَ الْلَهِيبِ الثَّائِرِ المُشْـتَعِلِ
فَأَنْطَـقَ اللّٰـهُ الصَّبِـيَّ قائـلاً أُمَّـاهُ هٰـذا الحَـقُّ فِيـهِ فَانْزِلـي

يشير الناظم إلى ما ذكره الله في سورة الأخدود من قصة حرق المؤمنين بالنار، وملخص الأمر أنه كان ذو نواس الحميري ملكاً على اليمن وكان يدين باليهودية ومتعصباً على دينه أشد التعصب، بل كان يُكره الناس على الدخول إلى دينه، واتخذ من مدينة صنعاء عاصمة لمُلكه بعد أن تغلب على خصمه اللدود (ذي الشناتر) وقتله، واستتب له الأمر من بعده ووضع قبضته على اليمن وأجبر أهلها على اعتناق اليهودية.

وأثناء مرحلة حكمه دخل إلى أرض اليمن راعٍ روميٌّ يدينُ بالنصرانية على وجهها الصحيح اسمه (فيمون) ، ودخل من جهة الشام إلى اليمن متنقلاً من قرية إلى أخرى يدعو إلى المسيحية، وفي بعض القرى آمن به رجل يدعى (صالح) فتبعه والتزمه وصار لزيماً له في سفره وحضره، وفي بعض الطريق خرج عليهما قطاع الطرق فأخذوهما أسيرين وباعوهما في سوق نجران، فعاشا في نجران عبدين رقيقين على أدب وحسن سلوك وصدق دعوة إلى

ديانة المسيحية حتى تأثر بهما غالب الناس، وتبعهما خلف كثير، واشتهر أمرهما في البلاد.

ولما بلغ الخبر إلى ذي نواس غضب غضباً شديداً وجهز جيشاً كبيراً وسار به نحو نجران وحاصرها وأرعب أهلها ، ودعا بأشرافها ووجهائها من النصارى وخَيَّرهم بين الرجوع إلى اليهودية أو الموت حرقاً ، فرد عليه الجميع لن نبدل ديننا وافعل ما شئت، فأمر جنوده وعماله وأتباعه بحفر الأخدود في سكك المدينة فحفروه في مدة قليلة، ثم أمرهم بجمع الحطب ووضعه في الأخدود وأضرم فيه النار، ثم قعد هو وزبانيته يستعرضون الناس فمن أبى أن يرجع إلى اليهودية رموه في الأخدود.

وقد أبلغ القرآن في وصف تلك القصة بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج:٨].

وأثناء ذلك جاءت امرأة ومعها طفلها الرضيع فتقاعست أن تقع في النار، فأنطق الله رضيعها وقال: يا أماه اصبري فإنك على الحق، فرمت بنفسها ورضيعها في النار، ولم يبق في نجران نصراني إلا رمي في نار الأخدود رجالاً ونساء وأطفالاً، وشعر ذو نواس بفعله الشنيع أنه شفا نفسه وانتصر لدينه، ولهذا فقد عاد إلى صنعاء بعد هذه الفعلة مزهواً بنفسه وقوته.

الدرس الرابع والسبعون

قصة سيل العرم في بلاد اليمن (سبأ)

وَجَاءَ فـي القُـرْآنِ عَـنْ أَهْلِ سَـبَا — في سُـورَةٍ تَحْكِي عَظِيـمَ المَثَلِ
عَـنْ جَنَّتَيـنِ تَنْعَمَـانِ بِالرَّخَـا — فـي غَابِـرِ العَصْرِ القَدِيـمِ الأَوَّلِ
فَكَفَـرُوا وَجاهَـروا بِفِسْـقِهِمْ — وَأَنْكَـروا حَـقَّ الإِلٰـهِ المُعْتَلِـي
فَأَرْسَـلَ المَوْلَـىٰ عَلَيْهِـمْ فَجْأَةً — سَـيْلاً عَظِيمـاً دَمَّرَ السَّـدَّ المَلِي
لَـمْ يُبْـقِ فـي جَنَّتِهِـمْ مِـنْ مُثْمِرٍ — إِلّا قَلِيـلَ السِّـدْرِ مِثْـلَ الأَثْـلِ

يشير الناظم إلى قصة جرت أحداثها في المرحلة التاريخية بين عصر عيسى وعهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أشار القرآن العظيم إلى ذلك في سورة سبأ.

ومفاد القصة على وجه التفصيل : أنه بعد زوال الدولة المَعِينِيّة في بلاد اليمن قامت دولة سَبَأ نسبة إلى مؤسسها سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان بن هود، واتخذ مدينة مأرب عاصمة لملكه، وبدأت إمارة صغيرة ثم تطورت حتى صارت دولة عظيمة، وكان من عوامل ثراء واستقرار الدولة بناء سد مأرب الشهير الذي كان يحجر مياه كثيرة يتم تصريفها في أنحاء الوادي بطرق هندسية بديعة متقنة ، فيما أضفى على البلاد بهجة على بهجتها، وتهيأ بالزراعة والمحاصيل المتنوعة كفاية مادية لكل الرعايا في جانبي الوادي، وكان هذا سبباً أيضاً في حركة التجارة المتبادلة مع حواضر الشام وأطراف اليمن ، حتى قيل: إن الغادي منهم يقيل في قرية ويبيت في أخرى حتى يبلغ

الشام ، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً، وبهذا التواصل بلغت إليهم دعوة التوحيد، وانتقل إليهم الرعاة والأحبار والرهبان يذكرونهم بالله والآخرة، وقد امتن الله عليهم بذلك ووصف حالهم في السورة المشار إليها سلفاً فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥].

بل امتنّ الله عليهم بما هيأه لهم من تواصل بلدان اليمن والشام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ:١٨]، ومع هذا النعيم الوفير والخير الكثير أعرضوا عن الإيمان بالله تعالى واستجابة دعوته، وأخذت بهم عقولهم نحو الاستكبار والاعتداد بالحضارة التي شيدوها، وطغوا في الأرض وتجاوزوا الحدود، فما كان من الحق سبحانه وتعالى إلا أن أمهلهم بعض الإمهال ثم صب جام غضبه عليهم ، قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦].

وصفٌ قرآنيٌّ دقيق للكارثة التاريخية التي حرفت عند أهل التاريخ والآثار بانهيار سد مأرب ، وما ترتب على ذلك الانهيار من استبدال جنتيهم بجنتين من نوع آخر، وأكد القرآن في عرضه التاريخي أن سبب الانهيار هو الكفر، بصرف النظر عن العوامل والأسباب قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧]، وقد بدأ تمردهم وتحديهم منذ أن وجهوا طلبهم أن يباعد الله بين أسفارهم قال تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ:١٩]، ويبدو أن سبب ذلك أنهم ذكروا ذلك لبعض صالحي زمانهم على سبيل السخرية والاستهزاء فظلموا أنفسهم بهذا الطلب، وأجرى الله عليهم ما أجراه، من دمار القرى بسيل العرم حتى تباعدت المسافات وتمزقت شعوبهم كل ممزق، وضرب بهم المثل (تفرقوا أيدي سبأ) وصاروا

أخبارا تروى للأمم والشعوب قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ، فصاروا عبرةً للمعتبر ودرساً للخلق من بعدهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩].

وربط القرآن هذه الحوادث بدور إبليس في غوايته للأمم وكيف استطاع أن يغلب الظن في عقولهم بدلاً عن الحق فصاروا بهذه العقول مستتبعين للشيطان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ ، ولم ينج من هذه العلة: ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠] .

وتعلل الآيات أثر الشيطان وقدرته على الغواية في أولئك أنها اختبار من الحق بين سر التخيير والتيسير في نفوس العباد: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ:٢١].

لقد تفرقوا أبدى طرقاً شتى فنزحت غسان إلى الشام، ورحلت أنمار إلى يثرب، وتوجهت جذام إلى تهامة، والتحق آل خزيمة بالعراق.

لقد صدق الحق في عرض حال هذه الأمة وما حل بها قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الدرس الخامس والسبعون

قصة أصحاب الفيل

قَـد قِيلَ فـي الآثـارِ : إنّ مَـا جَرىٰ لِأَهْـلِ نَجْرَانَ مِنَ الحَرْقِ الجَلِي
أَدَّىٰ إلىٰ شَـكْوَىٰ النَّصارىٰ أَمْرَهَمْ إلـىٰ تُخُـوم الـرُّومِ دُونَ كَلَـلِ
وَغَضِـبَ القَيْصَـرُ مِمّـا نَالَهُـمْ في قِصَّةِ الأُخْدُودِ عَيْنِ المُشْكِلِ
فَوَجَّـهَ الأَمْـرَ إلـىٰ أَحْبَاشِـهِ لِلإِنْتِقَـامِ جَحْفـلاً فـي جَحْفَـلِ
يَقُودُهُـمْ (أَرْيَـاطُ) ثُـمَّ بَعْـدَهُ أَبْرَهَـةٌ قَـدْ مَلَـؤُوا لِلسُّـبُلِ
وَهَزَمُـوا عَدُوَّهُـمْ وَجُنْـدَهُ وَاجْتُـثَّ ذُو نَـوَّاسُ بَيْـنَ العُقُـلِ
وَأَسَّسُـوا كَنِيسَـةً مـا مِثْلَهَـا ووَجَّهُـوا النَّـاسَ لِحَـجٍّ بَـدَلِ
فَرَفَـضَ العُرْبَـانُ أَنْ يَأْتُـوا لَهـا وَلَوَّثُوهَـا بِالرَّجِيـعِ المُخْجِـلِ
فَغَضِـبَ الأَحْبَـاشُ ثُـمَّ جَيَّشُـوا لِغَـزْوِ بَيْـتِ اللّـهِ كُلَّ رَجُـلِ
وَاتَّجَهُـوا وَفِيلُهُـمْ أَمَامَهُـمْ أَبرَهَـةٌ يَقُودُهُـمْ فـي عَجَـلِ
فَأَرْسَـلَ اللّـهُ عَلَـىٰ جُمُوعِهِـمْ طَيْـرَ الأَبَابِيـلِ كمـا فـي المُنْزَلِ

يشير الناظم إلى إحدى الحوادث التاريخية التي جرت قبيل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي مفصل تاريخي عظيم ، ومفادها كما جاء في كتب السير أن رجلاً من نصارى نجران اسمه (دوس) تمكن من الهرب بعد حادثة الأخدود وذهب إلى (قيصر الروم) وكان نصرانياً فبعثه قيصر الروم

إلى النجاشي حاكم الحبشة لينتقم من ذي نواس الحميري للنصارى، وجهز النجاشي جيشاً عظيماً بقيادة (أرياط) و (أبرهة) وانتصر جيش النجاشي على (ذي نواس) ، وأصبح (أرياط) حاكماً لليمن تحت راية النجاشي، وبعد مدة من الزمن انقلب أبرهة على أرياط واستولى على حكم اليمن.

وخلال فترة حكمه أمر ببناء كنيسة كبيرة في ناحية نجران حتى صارت لا يوجد لها مثيل في الأرض، ودعا الناس ليحجوا إليها بدلاً عن الكعبة المشرفة، وأرسل أبرهة وفود إلى الجزيرة العربية يدعوهم إلى الحج في الكنيسة التي بناها، ولكن العرب أبو ذلك ولم يوافقوه على طلبه، وقام بعض العرب بتلطيخ جدار الكنيسة بالعذرة والقذر مما أغضب أبرهة ، وقرر أن يهدم الكعبة التي يعظمها العرب، وجهز جيشاً عظيماً وتوجه به على طريق مكة وهو يمتطي ظهر الفيل، وعند اقتراب الجيش من مكة بعث (أبرهة) من ينهب أموال أهل مكة، وكان منها إبل عبد المطلب فجاء عبد المطلب يسأل عن إبله ، فقال أبرهة: أنا لم آتي للحرب بل جئت لأهدم هذا البيت، فلو تركتُموني حقنتُ دماءكم ، فرد عليه: نحن لا طاقة لنا بحربكم وأنا رب إبلي وللبيت رب يحميه.

وذهب عبد المطلب وجمع قريشاً إلى شعاب مكة وأمر أحد أولاده أن يصعد على جبل أبي قبيس ليرى ما يجري، وعاد الولد ليخبر أباه أن سحابة سوداء تتجه من البحر الأحمر إلى أرض مكة .

وبرك فيل أبرهة على الأرض بوادي محسَّر ، وهو الوادي الذي أهلك الله فيه جيش أبرهة ، وهو ما بين عرفات ومكة ، ولم يتحرك الفيل إلى الأمام، وإذا أعاده إلى جهة اليمن سار معهم، وخلال ذلك جاءت طيور ـ تشبه الخطاطيف ـ من جهة البحر تحمل في منقار كل واحد منهم حجراً وفي رجلها حجر آخر، ثم ألقت الطيور الحجارة على جيش أبرهة، فهلك من الجيش خلق كثير وفر منهم من استطاع، وأما أبرهة فقد أصابته الحجر وعاد

مصابا حتى مات في صنعاء.

وفي هذا العام (عام الفيل) ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل:٥].

الدرس السادس والسبعون

مرحلة النبوة الخاتمة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

وَحَـانَ حِيـنُ الوَعْـدِ دُونَ مَهَـلِ ببَعْثَـةِ الهَـادِي إِمَـامِ الرُّسُـلِ
مُبَشِّـراً بِـهِ عَلَـىٰ طُـولِ المَـدىٰ مِنْ آدَمٍ لِعَصْرِ عِيسـىٰ المَرْحَلِي
مُسْـتَيْقِنِينَ فـي النُّصُـوصِ أَمْـرَهُ بِأَنَّـهُ الخَاتِـمُ بِالأَمْـرِ الجَلِـي
مِـيـلادُهُ بَـعْـثَـتُـهُ هِـجْـرَتُـهُ وَمَـوْتُـهُ نِـهَـايَـةٌ لِـلأَجَـلِ
مَرْحَلَـةٌ تَمَيَّـزَتْ فـي نَهْجِهـا وَخُصَّ عَصْرَ المُصْطَفَىٰ المُبَجَّلِ
أَحْيَـتْ مَضَامِينَ الهُدىٰ مِمّا مَضىٰ وَالدِّينُ أَضْحىٰ مَنْهَجَ المُسْتَقْبَلِ
مَـرَاحِـلٌ ثَـلاثَـةٌ قَـرَّرَهـا هِيَ الأَسَاسُ في حُلُولِ المُشْكِلِ
عَصْـرٌ بِـهِ اسْتِدْلالُنا لَمّـا جَـرَىٰ فـي مَكَّـةٍ وَطَيْبَـةٍ مِـنْ مُثُـلِ
وَعَصْـرُ مَاضٍ في مَدىٰ اسْـتِقْرَائِنا وَضَبْـطِ آتٍ في اسـتِبَاقٍ مُجْمَلِ
مَـرَاحِـلٌ بها عَـرَفْـنا دَوْرَنـا وَدَوْرَ مَـنْ يَأْتِـي فَحَقِّـقْ وَاسْـأَلِ
فـي أَرْبَـعٍ مِـنَ العُلُـومِ دَرْسُـها يَبْـرُزُ تَارِيـخُ الوُجُـودِ الأَزَلِـي

يشير الناظم على المرحلة الخاتمة الجامعة الشاملة التي أتم الله بها في العالم الإنساني أمر الرسالات والشرائع، فهو النبي المبشَّر به على مدى تاريخ الأنبياء والرسل، وتبدأ دراسة مرحلته بالميلاد الشريف وما أجره الله من الآيات ومظاهر الانفعال الكوني علامةً على ظهور ناصيته الشريفة.

ثم يأتي موضوع دراسة بعثته منذ نزول الوحي عليه في غار حراء، وما ترتب على الوحي من دعوة وتشريع ودعوة توحيد ومحاربة وثنية وجاهلية.

وتأتي بعدها مرحلة الهجرة التي انتقل فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة؛ ليرسم بالوحي منهج الشريعة والعقيدة والسلوك ودعوة الجهاد في سبيل الله، حتى وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وهدى اللهُ به بشراً كثيرا.

ويشير الناظم إلى المراحل الثلاث التي تنطلق منها دراسة الحياة الإنسانية تشريعاً وعقيدةً ومراتبَ سلوكٍ:

١. فالعصر الأول عصر الاستدلال أو المرحلة الاستدلالية: مرحلة البعثة إلى الوفاة،
٢. والعصر الثاني عصر المرحلة الاستباقية، وهي نصوص القراءة المستقبلية من عهده صلى الله عليه وآله وسلم حتى قيام الساعة وما بعدها،
٣. والعصر الثالث القراءة الاستقرائية لماضي تاريخ الأمم والشعوب،

ومادة هذه القراءة نصوص كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وما تفرع عنها من دراسة العلوم العقدية والتشريعية والسلوكية وعلامات الساعة على أربعة علوم مفصلة، وهي:

الأول: عِلْمُ الأَزَلِ، ومِنْهُ علمُ السَّوَابِقِ وَالخَوَاتِيمِ، وعالم التَّكوينِ وما قبل خلافةِ آدمَ في الأرض، وهو قسمانِ:

١- قِسْمٌ خَاصٌّ بِالحَقِّ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٢- قِسْمٌ خَاصٌّ بِالخَلْقِ، وهو ما أُطْلِقَ عَلَيْهِ مُسَمَّى (عِلْمِ السَّوَابِقِ وَالخَوَاتِيمِ).

الثاني: علـم الأجل والأمل: وهو ما يتعلق بالحياة وخلافتها بدءاً من عصر

نـزول آدم ونهاية بالانتقال إلى عالم المـوت، وهو أيضاً ما يتعلق بحياة المرء من ولادته إلى عهد وفاته.

الثالـث: علم الأمد: وهـو منذ قبـض روح العبد وانتقاله إلـى عالم البرزخ والبعث والنشور وعالم الحساب والمساءلة.

الرابـع: عالم الأبد: وهو ما يجريـه الله تعالى بعد الفراغ من العرض الأكبر والصراط والميزان باستقرار أهل الجنة الأبدي في الجنة، واستقرار أهل النار في النار.

وهذه العلوم الأربعة مبسوطة في كتب التفسير والحديث والسير والأخبار والآثار بما فيه الغنية والكفاية من البسط والتفصيل.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ووفقنا اللهم لفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، يا أرحم الرحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

تم الكتاب بحمد الله مساء يوم الاثنين

١٨ القعدة ١٤٣٧هـ

سيلان (سرنديب) مهبط آدم عليه الصلاة والسلام

الفهرس

هذا الكتاب

- محاولةٌ شـعريةٌ ونثريةٌ لإعادة القـراءة لمراحل التاريخ الإنساني على ضوء الربط بين الديانة والتاريخ.
- إعادة صياغة العلاقة بين الإنسانية والنصوص الشرعية، باعتبارهـا الضابـط الموثوق في التوصيف والتشـخيص والمعالجة.
- لفتُ نظرِ الأجيال لأهمية البحث العلمي من وجهة نظرٍ شرعيةٍ قائمةٍ على الدراسة الواعية للكتاب والسنة.
- رصدُ مسـيرةِ الحياةِ البشريـةِ من خلالِ حيـاةِ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسـلام ، وترجيحُ القراءةِ الشرعيةِ على القراءة الوضعيةِ المتداولةِ .
- بناءُ جيلٍ إسلاميٍّ يقرأُ العلمَ ومخرجاتِه من خلالِ رباعيةِ الأركانِ ، والربطِ العلميِّ بينَ الثوابتِ والمتغيراتِ .